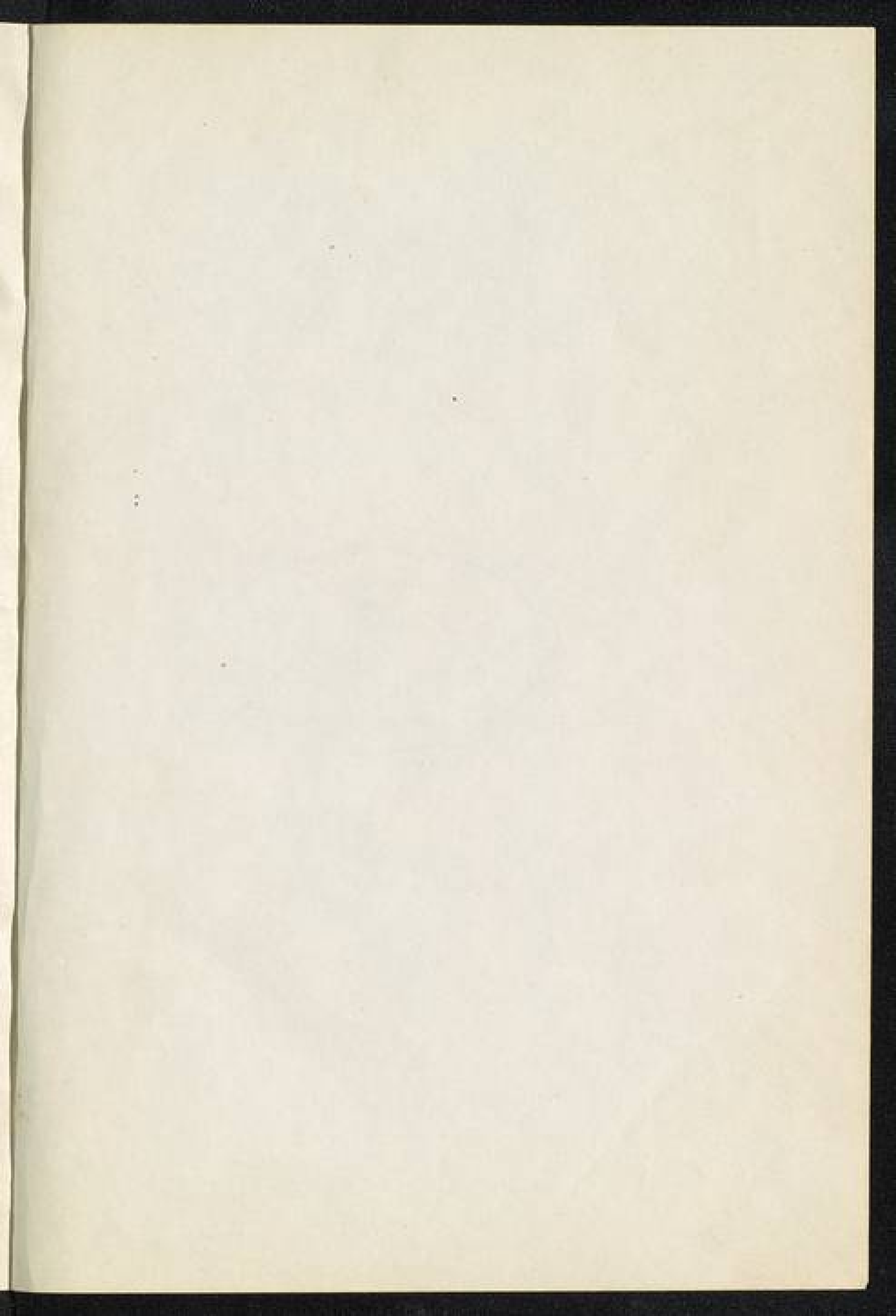
زيادة

المؤرخون فى مصر فى القرن ١٥ م


SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI


معمل تجليد
دار الحياة
صالح الدهر



لجنة التأليف والترجمة والنشر

المؤرخون فى مصر
فى القرن الخامس عشر الميلادى
(القرن التاسع الهجرى)

محمد مصطفى زيادة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

نسخة ثانية

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٤٩

محتويات الكتاب

تصدير

الحاجة الشديدة إلى معجم يحوى سير الذين يرجع إليهم فضل التوجيه فى المجتمع المصرى ، على مختلف الأزمنة ، أمر مفروغ منه ، والشروع فى ذلك المعجم عمل ينادى هل من مبتدئ ، ولستُ أعرف ممن استمعوا إلى هذا النداء وأصاخوا ثم استجابوا إلا نفراً كريماً قليلاً ، والعمل ضخم يتطلب مجهوداً أضخم ، والحماسة الفردية فيه كالغناء بصوت مرتفع فى البادية الموحشة .

ويعذرنى القارئ إذا أنا قلت فى إيمان راسخ إن مشروع ذلك العمل لا يقل أهمية — فى حاضر الأمة ومستقبلها — عن مشروع مكافحة الأمية ، أو مشروع الإلزام فى التعليم الابتدائى ، فهو مثلهما نوع من المكافحة فى سبيل النهضة العامة ، وهو مثلهما كذلك فى حاجة إلى عدد من الأيدى العاملة فى صمت نشيط . وما أبرئ نفسى من إقبال على الدعوة إلى ذلك المشروع أحيانا متقطعة ، كما لا أبرئها من إدبار عن الكلام فيه أحيانا أقل تقطعا ، ولعلى أكفر عن هذا وذاك بالصفحات التالية الحاوية لأخبار المؤرخين الذين عاشوا بمصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) ، وخلفوا من

المؤلفات ما سوف يبقى المصدر الأول لما نحتاج من معرفة لأحوال ذلك العصر من تاريخ وثقافة ، وأدب واقتصاد ، وسياسة واجتماع ، ولا سيما إذا أضفنا إلى تلك المؤلفات ما هنالك من كتب أخرى مغمورة ، وآثار كثيرة شبه مطمورة الأوصاف فى كتب الأخصائيين .

وأحب هنا أن أقرّر فى غير تردّد أو لبس أنى لا أدعى القول الفصل فى المؤرخين بمصر فى القرن الخامس عشر الميلادى بهذه الفصول القليلة ، وأنى لا أعتبر نفسى ملأت فراغاً كبيرا من مشروع المعجم الذى يجب أن يتوفر على ملئه مجمع من الباحثين ، إذ الصفحات التالية لا تعدو أن تكون محاولة هى الأولى من نوعها ، وهى كذلك لا تعدو أن تكون معالجة لأخبار طائفة مفردة من طوائف المؤرخين فى بلد ذى تاريخ مديد . والعارفون بالتأليف العلمى الحديث يدركون تمام الإدراك ، أن الموضوع الواحد فى علم من العلوم كائنا ما كان ، يستطيع — بل ينبغى — أن يظل ميدانا مفتوحا للاجتهاد ، والتعديل بالحذف والإضافة ، جيلا بعد جيل ، على شرط الإحسان والتدرج نحو الكمال ، والعكس غير مطلوب أو مرغوب فيه ، وهذا بديهى .

وأحب هنا كذلك أن أهمس فى أذن الراغبين فى الكتابة فى طائفة أخرى من المؤرخين فى مصر — وأرجو أن يكون من أولئك الراغبين كثرة فى القيمة لا العدد — أنى لم أستمد

حقائق من كتب التراجم فحسب ، بل قرأت جميع ما وصلت إليه يدى من مؤلفات القرن الخامس عشر الميلادى بمصر فى التاريخ وغير التاريخ — مطبوعة ومخطوطة — ، وأخرجت منها معلومات كثيرة عن طريق المقارنة والاستنتاج ، كما عثرت على بعض ما دوّنتُ هنا من حقائق تاريخيـة فى غير مظانها من الـكتب المعروفة .

وللقارئ أن يسأل هنا عن الغرض الذى من أجله هدفتُ إلى الاقتصار على الترجمة لطائفة دون غيرها من المؤرخين فى مصر ، والجواب أنى لم أهدف بذلك إلى غرض معين . بل الواقع أنى أعددت هذه التراجم سنة ١٩٢٧ م لتكون فصلا إضافيا لرسالتى فى الدكتوراه بعد الاستقرار على عدد فصولها ، إذ رغب الأستاذ المشرف وقتـذاك أن أشرح له الأصول والمنابع العربية التى استقيتُ منها حقائق الـكثيرة ، ليكون على بيّـنة من أمر تلك الحقائق وأمرى ، وليلقى علىّ درساً فى الجرح والتعديل (historiography) ، وهى العدالة والضبط على قول المحدّثين . ثم غدوتُ مدرساً بعد ذلك بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، وانصرفتُ انصرافا مجزوءاً لتدريس تاريخ الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر والشام ، وألفيت هذه التراجم خير مقدمة لدراسة المرحلة الأخيرة من التاريخ المملوكى ، فنقلتها من الإنجليزية إلى العربية ، وأضفت إليها ما استطعت أن أضيف

من جديد ، ونشرت معظمها بمجلة الثقافة الأسبوعية سنتى ١٩٤٠ — ١٩٤١ م . ثم كان أن ظهرت لى مادة جديدة مما تنشره المطابع بالشرق والغرب من متون وبحوث ، فعكفت مرة أخرى على تعديل هـذه التراجم ، وغيرت بعضها تغييراً كليا بالحذف الكثير والإضافة الكثيرة ، وبذا أودعت هـذه الصفحات جميع ما جدّ علىّ من فكرة ومادّة فى المؤرخين بمصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وتقدّمت بها للظهور فى مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ولست أريد من هذا الظهور تنويها بتلك الفئة من المؤرخين فحسب ، بل أريد كذلك تنبيها إلى كتبهم التى لا يزال معظمها فى ظلمات المخطوطات ، إما بدار الكتب الملكية فى نسخة فريدة كاملة أو ناقصة ، وإما بمختلف مكتبات الشرق والغرب فى نسخ نحن فى أعظم حاجة إلى اقتناء صور منها . وهذه الكتب متفاوتة القيم ، والحاجة إليها كذلك متفاوتة الدرجات ، والمنطق العملى السليم يوحى إلى الاهتمام أولاً بالأهم من تلك الكتب دون مراعاة حجمها من حيث الكبر والصغر ، إذ تبين أنّ لبعض الكتب الصغرى من القيمة ما تقصر عنه الكبرى[1] . ومن أجل هذا وذاك دعوت — مرة بعد مرة — إلى ضرورة العناية بنشر

---

(١) انظر ما يلى ص ٩٠ — ٩١ .

المخطوطات التى لن تستقيم كتابة التاريخ المصرى بدونها فى صورة مطبوعة ، ودللت على إخلاصى لهـذه الدعوة بنصيب لا يزال فى نظرى قليلاً .

وسوف يلحظ القارئ أنى اخترت توقيت هـذه التراجم وتواريخها بالسنوات الميلادية ، لا حبًّا فيها ، ولا هجرا للتوقيت الهجرى ، ولا إمعانا فى الفرنجة . بل قصدت بذلك أن أجعل من هذا البحث الصغير مرآة لناحية من الحياة العلمية والثقافية بمصر فى العصور الوسطى بمعناها العام ، لا بمعناها الإسلامى الخاص ، لأدل على مبلغ ما أسهمت به مصر فى التراث الإنسانى ، وأبرهن على أن المجتمع المصرى الإسلامى فى العصور الوسطى جزء هام من المجتمع البشرى فى تلك العصور . ولذا عنيت بالمقارنة هنا — فى هذه المقدمة — بين مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى فى مصر وأوربا ، فهـذا القرن الذى أنجب المقريزى وابن حجر وابن عرب شاه وأبا المحاسن والسيوطى وابن إياس وغيرهم فى مصر ، هو الذى أنجب حنا لفيفر (Jean le Fèvere) وفرواسار (Froissart) ومونسترولية (Monstrelet) وشاستلان (Chastellain) وبرسيفال دُكاني (Perceval de Cagny) فى أوربا .

غير أن المقارنة لا تقف عند الأسماء فحسب ، بل تتعدى إلى الخصائص والوسائل والغايات عند المؤرخين فى مصر وإخوانهم

فى أوربا — كل على شاكلته ونضج بيئته وشخصيته وأحواله — فابن حجر أشبه حنا افيقر فى أن كلا منهما تولى وظيفة كبيرة مسئولة فى بلاده ، وكتب وهو على تلك الوظيفة مذكرات ضافية فى بعض صفحاتها بأسرار عصره ؛ وابن عرب شاه أشبه برسيفال دُكاني فى أن كلا منهما نصب نفسه لكتابة تاريخ فى مدح ملك أو سلطان ، وهذا وذاك على سبيل المثال لا الحصر . وأكثر من ذلك أن معظم المؤرخين فى مصر وأوربا فى القرن الخامس عشر الميلادى استخدموا وسائل متشابهة فى جمع الحقائق والأخبار وتدوينها ، فتعقبوا الحوادث وتفاصيلها كما يتعقب الصحفى مادته للصحيفة اليومية ، وابتدأوا مؤلفاتهم بأصل الكون وتاريخ الخليقة ، وانتهوا بالسنوات التى عاصروها وشهدوها ، على نظام الموسوعات القديمة (summa) ، كما دأبوا على طريقة الحوليات الرتيبة ، ونقلوا من كتب السابقين فى غير خشية أو قصد أو اعتراف بالنقل ، مع الاشتغال بنظم الشعر والإجادة فيه إلى جانب صناعة التاريخ [1] .

ثم إن تاريخ القرن الخامس عشر الميلادى فى مصر يشبه

---

(١) يرجع الفضل فى معظم المادة الأوربية لهذه المقارنات إلى الدكتور ج . و . كوپلاند (G. W.Coopland) الأستاذ الزائر بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، وهو الذى أشرت إلى سابق فضله علىّ فى دراسة الدكتوراه بجامعة ليڤربول بإنجلترا .

أخاه فى أوربا ، بل يتبين من المقارنة بينهما أنه إذا كان ذلك القرن عصر انتقال وانقلاب فى التاريخ الأوربى ، فهو عصر أكثر انتقالا وانقلابا فى التاريخ المصرى ، إذ شهد ذلك القرن مطلع النهضة الأوربية الكبرى ، ومصرع البقية الباقية من الدولة الإسلامية فى أسبانيا ، وحركة الكشف الأوربى فى سبيل الوصول إلى الهند عن طريق المحيطين الهندى والإطلنطى ، كما شهد موجة الغزو المغولى بالشرق على يد تيمورلنك ، وهى الموجة التى هددت كيان المماليك بمصر والشام وكيان العثمانيين بآسيا الصغرى وأوربا ، وكادت تقضى على كلٍّ من الدولتين بدوره . غير أن الدولة المملوكية ما لبثت أن أفاقت واستطاعت أن تصفى الحروب الصليبية تصفية نهائية بالاستيلاء على جزيرة قبرص ، والتثنية على ذلك بمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس ، كما استطاعت الدولة العثمانية أن تصفى البيزنطيين تصفية نهائية كذلك بالاستيلاء على القسطنطينية وتحويلها عاصمة للعثمانيين . على أن قصة القرن الخامس عشر الميلادى فى مصر والشرق لم تتمّ فصولا إلا بعد قيام الدولة الصفوية بفارس ، إذ تمخّض الوضع لدولى الشرق عن تنافس بين الصفويين والعثمانيين على السيادة فى العالم الإسلامى ، ونهوض المماليك للمحافظة على تلك السيادة التى استقرّت فى دولتهم منذ إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة منتصف القرن الثالث عشر الميلادى . ثم انتهى الأمر كلّه حين أزال العثمانيون

دولة الصفويين ودولة المماليك ، وحلوا محل هذه وتلك بتبريز والقاهرة ، وغدت القسطنطينية عاصمة المسلمين ، وتغيّر محور الارتكاز فى الدولة الإسلامية أعظم تغيير .

وأودّ أن أختتم هنا فى نغمة من الشكر لأصحاب الفكرة والفضل فى ظهور هذه التراجم مطبوعة فى كتاب مستقل ، وأولهم الدكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فهو الذى أشار علىّ بجمعها أيام نقلتُها إلى العربية ، ثم الأستاذ محمد شفيق غربال بك وكيل وزارة المعارف فهو الذى نصحنى بتقديمها على غيرها مما عندى من ثمرات المطالعة ومجانى المحاضرة ، ثم الأستاذ عبد الحميد العبادى بك ، عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول ، فهو الذى قرأ هذه الصفحات وأشار بتعديل بضع من عباراتها قبل إنفاذها للطبع . وأودّ كذلك أن أشكر تلميذىّ وصديقىّ حسن حبشى وأحمد عيسى ، فلكل منهما فضل فى ظهور هذا الكتاب ، إذ ساعدنى أولهما فى الترجمة الأولى من الإنجليزية إلى العربية ، وقام ثانيهما على ترتيب فهرس المؤلفات الوارد هنا بعد الخاتمة ، كما جهد مع مطبعة اللجنة على أن يخرج هذا الكتاب فى صورة جديرة بالقارئ العربى الحديث .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة { ٢٦ جادى الأولى سنة ١٣٦٨ هـ .
٢٦ مارس سنة ١٩٤٩ م .

المؤرخون فى مصر
فى القرن الخامس عشر الميلادى
(القرن التاسع الهجرى)

[illegible]

[illegible]

([illegible])

الفصل الأول

المقريزى ومعاصروه

ربما دلّ البحث المقارن فى عصور التاريخ — وهو ميدانٌ بكر لاستجلاء الأسس العامة فى الحضارة الإنسانية — على أن القرن الخامس عشر الميلادى ، أى القرن التاسع الهجرى تقريبا ، أهم العصور التاريخية عند الإطلاق ، بسبب ما بدا فيه من عناصر توجيهية وأحداث مؤذنة بتغير أحوال الدول ، والجماعات والأفراد ، بالغرب والشرق سواء .

وكفى دليلا هنا على صحة هذا الفرض التاريخى أن الأوربيين مضوا جاهدين أن يصلوا مباشرة إلى الهند وتجارتها طول هذا القرن ، حتى إذا وصل البرتغاليون منهم إلى الشواطئ الهندية صار مصير الشرق كله فى كفة المقادير العاجلة . ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ البعيد ، بل عثر الأوربيون حوالى ذلك الوقت على أرض أخرى حسبوها الناحية الغربية من الهند ، وسموا أهلها الهنود الحمر ، ثم استقرّوا على تسمية تلك الأرض وسكانها أمريكا والأمريكيين ، وولّوا وجوههم شطرها وشطر الهند الحقيقية فى عنف لا هوادة فيه ونهم شديد ، مما يرجع كله فى

الأصل إلى القرن الخامس عشر الميلادى وحوادثه .

والمؤرخين فى مصر فى ذلك القرن ظاهرة توجب الالتفات ، وهى فى الواقع برهان على بدء العالم الإسلامى فى شىء من الإفاقة لفهم كيانه ، ولعل أكبر دليل على وجود تلك الظاهرة تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، لاسيما الجزء الأول منه ، وهو الجزء المعروف باسم المقدمة ، إذ يرى القارئ بصفحاته الافتتاحية تعريفا أخاذا للتاريخ بأنه "فى ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول . . . ، وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق[١]" .

والواقع أن ابن خلدون يشير إلى العلل والكيفيات ، والأسباب والنتائج ، بتلك الصفحات الافتتاحية إشارات كثيرة ، مما يدل على فقهه التام للتاريخ بالمعنى الحديث ، كما أنه يشير إلى ما يجب أن يتدرع به المشتغل بالتاريخ من المؤهلات حين يقول إن المؤرخ الصالح "محتاج إلى مآخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت ، يفضيان بصاحبهما إلى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتُمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والأحوال

(١) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٣ .

فى الاجتماع الإنسانى ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق . . .“ (١)

كتب ابن خلدون تاريخه بعد أن تنقل فى البلاد الإسلامية بالأندلس والمغرب ، وعاش فى بلاط سلاطينها المسلمين ، وتقلب فى خِدَم دواوينهم ، أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، كما سفر لأحد أولئك السلاطين ، وهو محمد الخامس سلطان غرناطة ، عند بيترو (Pietro) ملك قشتالة المسيحية ، وبذا شهد بنفسه أحوال الكثير من الدول عن كثب ، ولمس بيده عوامل التدهور الناشبة أظفارها بين المسلمين والمسلمين ، مما جعل لكتابه على وجه التعميم ، والمقدمة على وجه التخصيص ، قيمة تاريخية فريدة .

ثم وفد ابن خلدون إلى مصر سنة ١٣٨٢ م ، وكان انتهى من تأليف كتابه قبل ذلك ببضع سنين ، فأقام بالإسكندرية والقاهرة إقامات متقطعة ، وحج أكثر من مرة ، ودرّس بالجامع الأزهر ، والمدرسة القمحية وموضعها قرب جامع عمرو ، بل تولى منصب قاضى القضاة المالكية بمصر ، كما رافق الحملة المملوكية التى قادها السلطان فرج إلى الشام سنة ١٤٠١ م لدفع تيمور لنك عن دمشق ، وشارك فى وفد المفاوضة للصلح بين الدولتين المملوكية والمغولية .

(١) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٧ .

أما منبع الأهمية فى هذه التفاصيل الخاصة بحياة ابن خلدون، فهو أنها تنبئ بأصناف التجارب التى تمرّس بها وأودع منها فى كتابه، كما أنها تدلّ على اتصاله الطويل بكثير من العلماء والمؤرخين فى مصر والشام وغيرهما من البلاد، بل تدلّ المراجع على أن اتصالاته بعلماء مصر ومؤرخيها بالذات أدت إلى تكوين مدرسة حوله من المعجبين به والمتتلمذين على طريقته[1]، كما أدت إلى قيام فئة من الغامطين لمقامه[2] والمنددين بمقدرته. وإذا لم يتسع البحث هنا لأكثر من هذه الإشارة العابرة، فإن فى أخبار تلاميذه، والتابعين له بإحسان وغير إحسان، برهانا على أن قصة المؤرخين فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى لا تتم إلا بذكر ابن خلدون والإشارة إلى فضله، ولو لم يتسع الأمر لشىء سوى كلمات معدودة.

أما أول أولئك التلاميذ فهو أحمد بن على المقريزى، الذى ولد بالقاهرة سنة ١٣٦٤ م، بحارة برجوان بقسم الجمالية الحالى؛ والمقصود بالحارة هنا الفندق أو الخان أو الوكالة على حد المصطلح المصرى فى العصور الوسطى، أو العمارة الكبيرة على حد التعبير الحديث، ولا يزال استعمال لفظ الحارة بالمعنى القديم سائداً ببلاد الشام.

وجاءت أسرة المقريزى إلى القاهرة من بعلبك فى حياة أبيه

(١) انظر ما يلى ص ١٣ — ١٥.

(٢) انظر ما يلى.

علىّ ، وأصل نسبتها يرجع إلى حارة المقارزة بتلك المدينة الشامية القديمة ، ولا يسع الباحث هنا إلا أن يشير إلى الشبه الملحوظ بين هذه التسمية ولفظ مقريزى (Maccarese) ، وهى جهة بإيطاليا قرب[1] روما ، مما يحتمل معه أن تلك الحارة البعلبكية كانت سكناً لجالية من الجاليات الإيطالية التى وفدت للتجارة ببلاد الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية ، وأن أسرة المقريزى اكتسبت هذه التسمية لحلولها بتلك الحارة[2] بعد خلوها من أهلها الأصليين .

ومهما يكن فالمعروف المقطوع به أن أحمد بن على المقريزى نشأ قاهرياً ، بناحية من أعظم نواحى القاهرة امتلاء بالعمران والصخب وضوضاء الحياة[3] ، وأن جده لأمه ، واسمه ابن الصايغ الحنفى ، هو الذى كفل تعليمه ، لضيق حال أبيه علىّ فيما

---

(١) لم يستطع كاتب هذه السطور أن يجد تعريفاً لهذه الجهة بمختلف المراجع الجغرافية والموسوعات ، ما عدا أطلس التيمس الجديد (Time's Modern Atlas) ، حيث ورد بفهرسه ما نصه (Maccarese, torr. environs di Rome) وربما كان من لطيف الاتفاق أن لفظ (macarisie) فى الفرنسية وهو شديد الشبه بلفظ المقريزى اسم لمجموعة من النبات انظر : (Nouvelle Larousse Illustré).

(٢) جهد المؤلف أن يعثر على تلك الحارة حين زيارته بعلبك ، ولكنه لم يستطع أن يتعرف عليها أو على موضعها من البلدة الحالية .

(٣) انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ٢ ، ص ٩٥ — ٩٦ .

يبدو قبل أن يصبح من أصحاب الأملاك والعقار[١] . ولذا أخذ جده بتنشئته على أصول الحنفية ، وانكب هو على الدرس والتحصيل تحت إرشاد أساتذة عصره ، وأظهر نجابة ومقدرة . ثم مات ابن الصايغ سنة ١٣٨٤ م ، فترك المقريزى مذهب الحنفية ، وانتقل إلى الشافعية ، ودرس الفقه دراسة واسعة ، وأخذ من ثَمّ يهاجم الحنفية فى عنف استوجب لوم معاصريه له .

ثم التحق المقريزى بالخدم الحكومية ، فكان أول عهده بها ديوان الإنشاء بالقلعة ، حيث ظل يعمل موقعاً — أى كاتبا — حتى سنة ١٣٦٨م[٢] ؛ ثم غدا بعد ذلك نائباً من نواب الحكم — أى قاضياً — عند قاضى القضاة الشافعية ، فإماماً لجامع الحاكم ، ومدرساً للحديث بالمدرسة المؤيدية . وفى سنة ١٣٩٨ م اختاره السلطان برقوق (وكان حفياً به مشجعاً إياه) لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين فى عامين . وفى ذلك الوقت تزوج المقريزى وأنجب ، إذ المعروف أن بنتاً له ماتت بالطاعون الذى اجتاح القاهرة وسائر البلاد المصرية ، سنة ١٤٠٣ م .

---

(١) نفس المؤلف والمرجع والجزء ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، ١٠٥ .

(٢) انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار — طبعة القاهرة — ج ٢ ، ص ٢٢٥) حيث ذكر المؤلف أنه ظل فى وظيفة الموقع بديوان الإنشاء بالقلعة حتى تلك السنة .

وفى سنة ١٤٠٨ م انتقل المقريزى إلى دمشق ، ليتولى النظر على أوقاف القلانسية والمارستان النورى ، وليقوم بتدريس الحديث بالمدرستين الأشرفية والإقبالية هناك . ثم لم يلبث أن عينه السلطان فرج بن برقوق كذلك نائبا للحكم بدمشق ، استيفاء لشرط الواقف أن يكون المتنظرون على أوقافها قضاة بها . لكن المقريزى أبى قبول هذا الشرف ، على الرغم من عرض الوظيفة عليه مرارا من قبل السلطان ، ويظهر أنه سئم الخدم الحكومية وضاق بتكاليفها ، وأنه ملك من الموارد التى ربما ورثها عن أهله ما أغناه عن تضييع وقته فى كسب العيش ، عن طريق الدواوين ومجالس الحكم .

وكيفما كان الأمر ترك المقريزى دمشق وأعماله بها بعد إقامته عليها عشر سنوات تقريبا ، ورجع إلى القاهرة خاليا من عمل أو وظيفة ، ليتوفر على الدرس والاشتغال بالعلم ، ولا سيما التاريخ . ومن أجل ذلك رحل المقريزى وعائلته سنة ١٤٣٠ م حاجا إلى مكة ، وكان مجاوراً بها قبلاً إبان طلبه العلم ؛ بيد أنه ظل مقيما بمكة تلك المرة الثانية حتى سنة ١٤٣٥ م ، واشتغل بها فى تلك الأثناء بتدريس الحديث وبالتأليف فى التاريخ . ثم عاد المقريزى من بعدئذ إلى القاهرة ، حيث أمضى بقية حياته بحارة برجوان التى مابرح منذ شبابه يفاخر بها على سائر الحارات ، ويظهر

أنه جعل من منزله بها مكانا لمدارسة تلاميذه ، وللتأليف الكثير في مختلف علوم عصره [١] .

بدأ المقريزى نشاطه العلمى الضخم بظهور تاريخ القاهرة المسمى المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، وهو كتاب عنى فيه صاحبه قبل كل شىء بدراسة الخطط حتى عرف بهذه التسمية حتى الآن ؛ وكان تأليفه إياه ما بين عامى ١٤١٧ و١٤٣٦ م . على أنه يظهر أن المقريزى اعتمد — إلى حدّ كبير — فى تأليف هذا الكتاب الزاخر — الذى يعدّ فخر مؤلفاته — على كتاب صنفه قبله الأوحدى المؤرخ ، فنقل منه دون أن يشير إليه أو يعترف بأخذه منه ، ورماه السخاوى من أجل ذلك بقوله إن كتاب الخطط "مفيد لكونه (أى المقريزى) ظفر بمسودة الأوحدى فأخذها وزادها زوائد غير طائله [٢] " ، بل ذكر السخاوى فى موضع آخر إن الأوحدى "كتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وأفاد وأجاد ، وبيّض بعضها ، فبيّضها التقى المقريزى ، ونسبها لنفسه مع زيادات [٣] " ، وأن المقريزى نفسه اعترف بانتفاعه بتلك المسودات [٤] . ولم يستطع الإخصائيون من مستشرقى القرن

---

(١) أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة — طبعة دار الكتب الملكية — ج ٨ ، ص ٢١٨ .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٢٢ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٣٥٨ — ٣٥٩ .

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٣٥٩ .

التاسع عشر الميلادى أن يدفعوا تلك التهمة تماما عن المقريزى ، أو يدلى أحدهم فيها برأى حاسم ، بل قال بصددها كاترمير (Quatremère) الفرنسى إن من الفطنة والصواب أن نسكت عن هذه القضية ، وأن نحذر الحكم فيها برأى قاطع[١] . على أنه مما يسترعى النظر أن المقريزى نفسه لم يدفع هذه التهمة بشىء قاطع ، ولم يستطع أن يدلى فى سياق الرد عليها بأكثر من قوله "حسب العالم أن يعلم ما قيل — ويقف عليه[٢]" . يضاف إلى ذلك أنه توجد بكتاب المواعظ شواهد داخليه تؤدى بالباحث إلى كثير من الشك على الأقل ، ومنها خلو بعض كتب المقريزى المتأخرة من عبارات واردة بكتاب المواعظ ، مثل إدلائه فى نسب الأكراد والأيوبيين برأى هام ، وعدم تكراره لهذا الرأى على أهميته فى كتاب السلوك[٣] ، ومنها كذلك ماجاء بكتاب المواعظ بصدد رباط البغدادية للنساء بالقاهرة ، حيث ورد مانصه : "وآخر من أدركنا فيه الشيخة . . . فاطمة بنت عباس[٤] البغدادية ،

(١) انظر (Quatremére : Mamlouks. I., p. XIII)

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ١ ، س ١٢ ، وكذلك ج ٢ ، ص ٢٠٦ ، حيث أشار المقريزى إلى اتصاله بالأوحدى .

(٣) انظر مقدمتى للقسم الثالث من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزي ، صفحة ى — ك .

(٤) المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق ج ٢ ، ص ٤٢٨ . انظر كذلك ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ ، حيث ورد اسم هذه السيدة الفاضلة فاطمة بنت عياش .

توفيت فى ذى الحجة سنة أربع عشرة وسبعمائة " ، وهذا التاريخ — إن صح المتن وصحت الوفاة — إنما يقع قبل مولد المقريزى (والأوحدى كذلك) بأزيد من خمسين سنة[١] .

ومهما يكن من شىء فالمقريزى صدّر هذا الكتاب الكبير بمقدمة جغرافية تاريخية مسهبة ، وتناول المدن والآثار المصرية القديمة والوسيطة بوصف دقيق ، مبتدئاً بالإسكندرية ، وعنى عناية خاصة بخطط الفسطاط والقاهرة طبعا ، فجاء الجزء الثانى منه — وهو نصف الكتاب — ثبتاً زاخراً بأحوال القاهرة وأخبارها ، وطرق المعيشة بأرجائها الواسعة فى العصور الوسطى . ثم أتبع المقريزى هذا الكتاب بتأليف فى تاريخ الفسطاط ، سماه عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط ، وهو فى الواقع تاريخ لمصر الإسلامية فى عهد الولاة . وأتلى المقريزى ذلك بكتاب فى دولة الفاطميين بمصر ، واسمه اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا[٢] ، حتى إذا فرغ منه فكر فى تأليف كتاب يكون تاريخا للأيوبيين والمماليك ، ليتم به سلسلة مؤلفاته فى

---

(١) يلاحظ أن هذه العبارة منقولة من الطبعة الكاملة المعدودة أحسن الطبعتين المعروفتين لهذا الكتاب ، وهى عبارة تتطلب تحقيقاً دقيقا بعد مقابلة النسخ المخطوطة بعضها على بعض ، ولا يسع كاتب هذا إلا أن يتمنى للمسيو جاستون فيت التوفيق فى إتمام طبعته الفاخرة لذلك الكتاب العظيم .

(٢) نشر الدكتور جمال الدين الشيال هذا الكتاب حديثاً فى طبعة مزيدة عن طبعته الأوربية القديمة . (دار الفكر العربى ، ١٩٤٩) .

التاريخ المصرى الوسيط ، من الفتح العربى إلى زمنه ، فكان كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، وهو الكتاب الذى غدا أساساً رئيساً لكل التواريخ المصرية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية الأولى والثانية .

ويلاحظ أن المقريزى كتب المؤلفات المتقدمة لتكون ذيلاً على كتاب المواعظ والاعتبار ، وأنه قصد فى كل منها أن يشرح ما أجمله من أخبار الدول الإسلامية المصرية التى تناولها قبلاً فى بكر مؤلفاته . ومن أجل ذلك كذلك شرع المقريزى فى التأليف فى كتب التراجم والسير ، وأوغل فى مشروعين كبيرين من هذا النوع من الكتابة ، غير أنه لم يتممهما لضخامة المقياس الذى بنى عليه كلا منهما . أما أول هذين المشروعين ، فهو كتاب المقفى الكبير ، وكان المقصود به أن يكون معجما لتراجم حكام مصر ورجالها من المسلمين والنصارى منذ أقدم العصور إلى ما قبل عصره ، وقدّر له أن يكون فى ثمانين مجلدا ، ولم يستطع أن ينجز منها سوى ستة عشر فقط . أما ثانيهما ، وهو كتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، فكان الغرض منه أن يكون معجما لتراجم معاصريه ، غير أن المقريزى تركه كذلك دون أن يفرغ من مراجعته .

وصرف المقريزى كثيراً من نشاطه الجمّ فى التاريخ الإسلامى العام ، فألف فى السيرة النبوية ، وفى قبائل العرب التى

نزلت مصر منذ الفتح ، وفى جغرافية حضرموت بجنوب شبه جزيرة العرب ، وفى الدويلات الإسلامية بالحبشة ، كما أسهم بنصيب وافر فى التاريخ الاقتصادى والنميات (Numsimatics) والتاريخ الاجتماعى ، حين ألف فى الأوزان والأكيال ، والمقاييس والنقود ، وفى تاريخ المجاعات والطواعين . وربما كان أهم مؤلفاته هذه كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، وكتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ، إذ رَجع القريزى ، فى الكتاب الأول من هذين الكتابين ، أمر الفرقة والتنافس على الخلافة بين الأمويين والهاشميين إلى عصبيات الجاهلية القديمة ، وأهمل جانب الحوادث المريرة والحروب المستحرة ، والشخصيات المتنافرة ، التى لم تعدُ كلها أن تكون أسباباً طارئة على جِذْم ذلك الخلاف وجرثومته ، مترسما فى ذلك سبيل ابن خلدون وفلسفته فى المقدمة[1] . أما الكتاب الثانى من هذين الكتابين فتناول المقريزى فيه تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ١٤٠٥ م ، وهى السنة التى ألف فيها ذلك الكتاب ، وأدى به البحث إلى أن أسباب ما ينزل بالناس من مجاعات وطواعين وأغلية إنما هو " سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد[2] " ، وهو تخريج اقتصادى

(١) ابن خلدون : المقدمة — طبعة بولاق ، ص ١٠٧ ، وما بعدها .

(٢) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة — نشر زيادة والشيال ، ص ٤ .

سليم مصدره كذلك مقدمة ابن خلدون وما جاء بها فى فصل الجباية وسبب قلتها وكثرتها ، وما يليه من الفصول المتفرعة على هذا المعنى[١] ، بل إن تأثير ابن خلدون على المقريزى فى تأليف هذا الكتاب بالذات تعدّى إلى طريقة العرض والأسلوب وفواتح الأبواب وخواتيمها ، فضلا عن الفكرة العامة[٢] . والحقيقة أن المقريزى تأثر بابن خلدون ومقدمته فى هذين الكتابين وغيرهما من مؤلفاته تأثراً فاق حد الإعجاب ، وآية ذلك وصفه للمقدمة بأنها " لم يعمل مثالها ، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هى زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتنبئ عن أصل كل موجود ...[٣] " ، وهو وصف يدل فى وضوح على دراسة

---

(١) ابن خلدون : المقدمة — طبعة بولاق ، ص ٢٣٣ ، وما بعدها .

(٢) المقريزى . إغاثة الأمة بكشف الغمة — نشر زيادة والشيال صفحة د .

(٣) السخاوى . الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ١٤٤ . انظر المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، حيث توجد ملاحظة عابرة إلى ما كان من عظيم الصلة والصداقة بين المقريزى وابن خلدون ، وانظر كذلك المقريزى : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٥٠ ، حيث أشار المقريزى إلى ابن خلدون إشارة التلميذ لأستاذه ، ولم يتحرّج أن يستشهد بعبارة لاذعة له فى وصف المصريين ، ونصها حسبما ورد بنفس المرجع والجزء والصفحة : " قال لى شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من [يوم] الحساب " .

المقريزى لمقدمة ابن خلدون دراسة وافية ، كما يدل على دقة فهمه لمحتوياتها المتنوعة ، وتقديره لقيمتها العلمية بالقياس إلى غيرها مما عرفه خلال قراءاته الدائبة التى يبدو أنها لم تنقطع إلا بوفاته سنة ١٤٤٢ م .

والواقع أن المقريزى كان واسع القراءة والمعرفة والاطلاع ، كثير الدأب والمثابرة ، كما شهد بذلك معاصروه ، وكما يشهد به ما خلفه من مؤلفات لم يرَ الضوء بعضها حتى الآن ؛ وإن نظرة واحدة إلى ثبت مؤلفاته لكفيلة بإيقافنا على إلمامه بالخطط والتاريخ والترجمة ، والسكة والأوزان والمقاييس كما تقدم ، وهذا فضلاً عن معرفته بعلم الحشرات[1] والمعادن والطب والموسيقى ، وعلم الكلام والعقائد والتوحيد والحديث . لكن أعظم اهتمامه كان موجهاً نحو التاريخ ، لأنه كان مغرى به ، معنياً بتحقيقه والتأليف فيه ، فعرف منه جزءاً كبيراً معرفة تامة ، وحفظ منه كثيراً عن ظهر قلب . وأقر بذلك كله تلميذه الذى عرف معاصريه من المؤرخين ، وخليفته الذى اقتفى أثره ومنهاجه فى كتابة التاريخ ، وهو أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، حين قال فى كتاب النجوم الزاهرة : "وفى الجملة هو أعظم من رأيناه فى علم التاريخ وضروبه ، مع معرفتى لمن عاصره من علماء المؤرخين ،

---

(١) انظر كتاب نحل عبر النحل الذى نشره الدكتور جمال الدين الشيال (مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٤٦) .

والفرق بينهم ظاهر ، وليس فى التعصب[١] فائدة " .

أما عن أخلاق المقريزى الشخصية ، فالمعاصرون له أجمعوا على أنه عاش رجلا فاضلا ديناً ، مجداً أميناً فى عمله ، حتى إن السخاوى — مع شدته فى نقد كتاب المواعظ والاعتبار — يقول إن المقريزى كان على جانب عظيم من " حسن الخلق ، وكرم العهد ، وكثرة التواضع ، وعلو الهمة لمن يقصد ، والمحبة فى المذاكرة ، والمداومة على التهجد والأوراد ، وحسن الصلاة ، ومزيد الطمأنينة ، والملازمة لبيته " ؛ وإنه " حمدت سيرته فى مباشراته[٢] " ، أى فى الوظائف التى تولاها قبل أن ينصرف إلى حياة الدرس الخالية .

وحفل عصر المقريزى بكثير من المشتغلين بالتاريخ ، وربما بدا بعضهم أوسع منه معرفة بدخائل ذلك العصر ، نظراً لتقلبهم فى الوظائف الكبرى بالدولة المصرية ، ومن هؤلاء ابن حجر والعينى وخليل بن شاهين وابن عرب شاه والخالدى .

أما أحمد بن حجر فولده بمصر القديمة سنة ١٣٧٣ م ، وتوفى أبوه — وهو محدث نابه فى زمنه — ولما يبلغ أحمد من العمر سنتين ، فنشأ يتيما فى كنف أحد أوصيائه ، ودخل الكتاب بعد إكمال

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٧ ، ص ٢٧٩ .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٢٢ ، ٢٣ — ٢٤ .

خمس سنين ، واستظهر القرآن وهو ابن تسع ، ويقال إنه حفظ سورة مريم فى يوم واحد ، بل قيل إنه بلغ من قوة الاستذكار أنه كان يحفظ الصحيفة من الكتاب بعد مرتين ، الأولى تصحيحا والثانية قراءة فى نفسه ، ثم يعرضها عن ظهر قلب فى الثالثة .

وسافر ابن حجر إلى مكة وجاور بها وهو فى سن الحادية عشرة ، فسمع بها وتفقه ؛ ثم حبب إليه الحديث وانصرف إلى دراسته انصرافا كليا بالحجاز والشام ومصر واليمن ، حتى صار حجة عارفا بالعوالى والنوازل . واشتهر ابن حجر فى عالم التدريس والفتيا ، وذاعت شهرة مؤلفاته الضخمة المتعددة فى الحديث والفقه والتراجم ، وأشهرها كتابه المسمى فتح البارى فى شرح البخارى ، وهو فى ثلاثة عشر مجلداً ، ولو لم يكن له غيره من المؤلفات لكفى للتنويه بعلوّ كعبه ، على قول معاصريه[1] والمنتفعين به من المحدثين حتى الوقت الحاضر . وبلغ من شهرة هذا الكتاب أن السلطان شاه رخ بن تيمورلنك وغيره من ملوك البلاد الإسلامية بعثوا فى طلبه بسؤال علمائهم ، وأن نسخاً منه بيعت بثلثمائة دينار .

وبدأ ابن حجر هذا الكتاب سنة ١٤١٠ م ، فلما فرغ منه أقيمت لختمه وليمة كبيرة بقنطرة التاج والسبع وجوه بأرض منية السيرج الحالية ، ألقيت فيها المدائح نظما ونثراً ، وحضرها ابن السلطان جقمق والأمراء ورجال الأدب ، ومن بينهم المقريزى

---

(١) ابن حجر الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٤٩٥ .

الذى كانت صداقة ابن حجر له وإعجابه بتآليفه جدّ عظيمين ، حتى إن ابن حجر نفسه لم يكتف بالإطناب فى مدح المقريزى حين ترجم له فى كتابه المجمع المؤسس والمعجم المفهرس[١] ، بل عرض عليه ما كتبه قبل أن يأذن للناسخ بنسخه .

وعاش ابن حجر شخصية بارزة فى مجالس الدولة المملوكية الثانية ، وذلك منذ سنة ١٤٢٤ م ، حين ولى منصب قاضى القضاة الشافعية ، وهو أكبر مناصب القضاة وقتذاك ، ولصاحبه الأولية على سائر قضاة المذاهب ، لكون مذهب الشافعى هو المذهب الرسمى للدولة . وظل ابن حجر متقلدا هذا المنصب الخطير مدة إحدى وعشرين سنة ، على أنه عزل عنه وأعيد إليه مراراً فى أثناء تلك الفترة الطويلة ، لاستقلاله فى الرأى واستمساكه بكلمة الحق ، مع لين الجانب والاحتياط والتواضع ، والميل إلى النكت اللطيفة والنوادر الظريفة . ولذا جاءت حولياته — أومذكراته بعبارة أدق — وهى المسماة إنباء الغمر فى أبناء العمر مرآة لشخصيته الفذة ، وصفاته المحمودة ، فضلا عن أنها من أهم المراجع الأصلية لعصره ، إذ كثيراً ما يمضى فيها المؤلف بالقارئ إلى ما وراء الستار ، فينير ما استغلق فهمه من حوادث الدولة وسياستها العامة بالمراجع الأخرى . وبدأ ابن حجر هذه المذكرات بسنة ميلاده ، وهى لذلك قاصرة على تاريخ الدولة المملوكية فى حياته ، وتشبه فى ذلك — إلى حد

(١) توجد نسخة من هذا الكتاب بدار الكتب الملكية المصرية .

صغير — كتاب الاعتبار لابن منقذ الشيزرى ؛ وربما كان أدلّ ما فيها على صفاته الشخصية وأحاسيسه الرقيقة أنه حرص مثلاً على ذكر حال الورد كلما وصل إلى موسم الربيع والأزهار فى حولياته ، حتى وفاته سنة ١٤٤٩ م . .

وكان العينى كذلك من المؤرخين المشهورين فى عصره ؛ ومولده قبيل المقريزى بأربع سنوات فى عينتاب ، وهى بلدة صغيرة بين حلب وأنطاكية . وجاء العينى إلى القاهرة أواخر القرن الثامن الهجرى ، واختير لوظيفة المحتسب بالقاهرة والوجه البحرى سنة ١٣٩٩ م ، بدلا من المقريزى ، فظلّ هذا مغاضباً لذلك من أجل ذلك — فى أكبر الظن — طوال أيام حياته . وولى العينى تلك الوظيفة عدة مرات بين عامى ١٣٩٩ و ١٤٤٢ م ، وهذا فضلا عن توليته فى الوقت نفسه لكثير من المناصب الرفيعة ، ولاسيما زمن السلطان برسباى الذى جعله قاضى القضاة الحنفية سنة ١٤٢٥ م . وبقى العينى شاغلا لتلك الوظيفة الكبيرة مع الحسبة مدة اثنتى عشرة سنة متوالية ، وأضيف إليه فى أثنائها نظر الأحباس بالقاهرة ، ولم يكن لذلك التعدد فى الوظائف شبيه أو سابقة فى تاريخ الإدارة فى مصر الإسلامية ، على قول السخاوى وغيره من المعاصرين .

وغدا تمكن العينى من اللغة التركية أكبر عون على ما تهيأ له من حظوة لدى سلاطين المماليك ، وعلى الأخص برسباى الذى

لم يعرف من العربية إلا القليل ، فكان العينى يجلس إلى حضرته ساعات الليل ، ليفسر له غوامض الفقه والشريعة ، ويقرأ عليه من حولياته التى كتبها بالعربية ، وهى كتاب عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، ثم يترجمها له إلى التركية رأساً . وهذا الكتاب من أعظم ما كتب العينى فى التاريخ ، وهو كذلك من أهم ما أهمله القوامون على نشر المخطوطات العربية وإحيائها حتى الآن .

ومما خلفه العينى من المؤلفات كذلك ، (وبعضها بالتركية) شرح مطول فى الحديث ، سماه باسم عمدة القارى فى شرح البخارى ، وانتقى فيه من شرح ابن حجر ، بحيث نقل منه صفحات كاملة متتابعة ، ولم يتحرّج عن معارضته كلما استطاع إلى ذلك من وسيلة أو مناسبة .

وإن فى حياة العينى لمشاهد رائعة ، ومعلومات قيمة ، بصدد علاقات الصفوة من الأدباء والعلماء بسلاطين المماليك فى ذلك العصر . غير أنه يظهر أن العينى لم يشأ أن تكون علاقاته بمعاصريه من أهل العلم على شىء من الوفاق والتقدير المتبادل . وربما كانت حظوته عند السلاطين من أسباب الجفوة الطويلة بينه وبين المقريزى وابن حجر ، وهذا فضلا عن أنه خلف الأول فى منصب الحسبة ، ولأنه خَلَق بينه وبين الثانى جدلاً عنيفاً بشأن كتاب فتح البارى .

وتوفى العينى سنة ١٤٥١ م ، وهو فى الحادية والتسعين من عمره ، وذلك بعد سنتين من عزله عن القضاء ، بأمر السلطان جقمق .

لكن السلطان جقمق أعجب بلباقة ابن عرب شاه ، وهو الذى ولد فى دمشق سنة ١٣٩٢ م ، ثم غادرها وأسرته سنة ١٤٠١ م إلى سمرقند ، حين غزا تيمورلنك دمشق ، وأخذ كثيراً من أهلها وناسها إلى عاصمته فى بلاد ما وراء النهر . وهناك تعلم ابن عرب شاه الفارسية والتركية والمغولية ، وتمكن منها جميعاً ، حتى أضحى قادرا على إجادة النظم فى كل منها ، بالإضافة إلى إجادته النظم فى العربية أيضاً .

وعاش ابن عرب شاه أخا سفر طول حياته ، فزار بلاد المغول وتركيا والشام وبلاد الحجاز ، حيث حج إلى مكة سنة ١٤٢٨ م . وجاء ابن عرب شاه إلى القاهرة سنة ١٤٣٩ م ، فأكرم وفادته ابن حجر والسخاوى وأبو المحاسن ، وأمضى هو المدة التى قضاها بالقاهرة فى البلاط السلطانى بدعوة من السلطان جقمق . وكتب ابن عرب شاه بعد ذلك رسالة فى مدح السلطان سماها باسم التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر ، القائم بنصرة الحق ، أبى سعيد جقمق . وعلى الرغم من المبالغة الشديدة فى هذا الكتاب الذى صوّر فيه ابن عرب شاه مولاه كأنه صورة مجسدة للفضيلة ، بل رفعه فيه إلى مرتبة الأولياء والقديسين ، فإنّ الكتاب إلى جانب ذلك يشتمل على تفاصيل تاريخية قيمة ، ونقد للحوادث الماضية . أضف إلى ذلك أن ابن عرب شاه كتب هذا الكتاب — على قوله — ليكون ترياقاً ضدّ السموم والخبائث التى أولغ منها قلمه فى

كتاب سابق ألفه فى مساوىء تيمورلنك ، وسماه باسم عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، — يريد بذلك أنه إذا صوّر فى الكتاب الأول حياة عملاق أعرج مغرى بالتخريب والهدم ، فإنه يرسم فى الكتاب الثانى صورة سلطان عادل كامل .

وزار ابن عرب شاه مدينة القاهرة عدة مرات بعد ذلك ، غير أنه لم يلق من السلطان جقمق شيئاً من حسن المعاملة ، على غير انتظار ، وهو الذى أطنب فى مديحه ، إذ أوحى إلى جقمق أنه يعمل ضدّ مصالح الدولة المملوكية . ثم وشى به أخيراً عند السلطان بأنه يعمل ضدّ مصالح جقمق نفسه ، فأمر بالقبض عليه وامتحن على يده ، وأرسل إلى سجن المقشرة سنة ١٤٥٠ م ، وهو فى شدة المرض . وعلى الرغم من تبرئته من جميع ما نسب إليه من التهم ، حتى إنه لم يمكث بالسجن سوى خمسة أيام ، لم يلبث أن قضى مهموماً حزيناً بالقاهرة فى شهر أغسطس من تلك السنة .

إلى جانب أولئك المؤرخين بقى اثنان ممن عاصروا المقريزى ، وهما وإن لم يشتغلا بكتابة التاريخ فكلّ منهما خلّف مؤلفا له قيمة واضحة فى فهم أصول الحكم وطرق الإدارة بمصر والشام فى العصور الوسطى ، وأولهما خليل بن شاهين ، وثانيهما الخالدى الذى ألف فى ديوان الإنشاء بالقاهرة كتاباً لا يعرفه إلا الأقلون حتى الآن .

أما خليل بن شاهين فولده سنة ١٣٧٢م ببيت المقدس ، حيث

عاش أبوه أميراً من أمراء المماليك فى تلك النيابة الشامية . وجاء ابن شاهين إلى القاهرة فى شبابه ، فدرس الحديث على ابن حجر ، غير أنه ترك ممارسة العلم ، والتحق بالفرقة المملوكية المسماة باسم فرقة أولاد الناس ، وهى الفرقة الخاصة بأبناء الأمراء من المماليك . وسرعان ما مضى ابن شاهين قدما فى طريق الوظائف ، حتى إنه جمع فى يده سنة ١٤٣٤ م وظيفة النائب والحاجب والمشدّ بالإسكندرية ؛ ويرجع بعض الفضل فى ذلك التعدد إلى أنه كان حماً للسلطان برسباى . وتقلب ابن شاهين بعد ذلك فى كثير من المناصب والنيابات بمصر والشام ، حتى إذا كانت سنة ١٤٤٨ م أنعم عليه السلطان جقمق برتبة أمير مائة مقدم ألف ، وهى أكبر الرتب الحربية فى دولة المماليك الأولى والثانية .

أما مؤلفاته فأهمها كتابه المسمى زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، كتبه ابن شاهين فى مجلدين يضمان بين دفتيهما أربعين فصلا ، ثم اختصره فى مجلد واحد إلى اثنى عشر فصلا ، وذلك فى عصر السلطان جقمق . وهذا المختصر هو الذى بقى حتى الآن ، وفيه تناول المؤلف الدستور المملوكى ، وبيّن الوظائف الحربية والإدارية فى دولة المماليك الثانية التى تقلب فى مناصبها حتى قبيل وفاته بالقاهرة فى نوفمبر سنة ١٤٦٨ م .

وأما الخالدى ، واسمه بهاء الدين محمد العمرى الخالدى ، فلا يعرف عنه حتى الآن (فيما أعلم) سوى أنه مؤلف لكتاب اسمه

المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا ، وهو كتاب مشابه فى موضوعه لكتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، لشهاب الدين بن فضل الله العمري المتوفى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى ، ولكتاب التعريف بالمصطلح الشريف لمؤلف نفسه ، ولكتاب صبح الأعشى للقلقشندى المتوفى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى . ومن الجلى لكل من يطلع على هذا الكتاب المخطوط أن مؤلفه تقلب كالعمرى والقلقشندى فى وظائف ديوان الإنشاء بالقاهرة مدة طويلة ، بدليل معرفته أسماء الدول والأقطار التى انقطعت رسائلها عن مصر فى عصره ، وبدليل إلمامه التام بأساليب الكتابة والدبلوماتية (diplomatics) إلى مختلف الملوك فى الشرق والغرب .

ومما وَضَح لكاتب هذه السطور أثناء قراءته لهذا المخطوط أن مؤلفه كتبه فى منتصف عهد السلطان برسباى تقريباً ، أو بعد سنة ١٤٣٢ م على التحقيق ، فهو حلقة ظلت حتى الآن مفقودة عند المشتغلين بتاريخ النظم المصرية فى العصور الوسطى ، وبه معلومات انفرد بها عمن سبقه من المؤلفين فى هذه الناحية من التاريخ المصرى .

الفصل الثانى

أبو المحاسن ومعاصروه

احتل أبو المحاسن[1] مركز الصدارة بين المؤرخين بمصر بعد وفاة المقريزى والعينى ، أواسط القرن الخامس عشر الميلادى . واسمه أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الظاهرى الجوبنى ، ومولده بالقاهرة فى يناير سنة ١٤١١ م ، بدار الأمير منجك اليوسفى ، قرب مدرسة السلطان حسن ، بحى القلعة الحالى . وكانت أمه جارية تركية من جوارى السلطان برقوق ؛ وأصل أبيه تغرى بردى مملوك رومى (يونانى) جميل الطلعة ، اشتراه هذا السلطان ورباه وجعله ضمن مماليكه ، ولم يلبث أن أعتقه ورقاه يوم عتقه إلى فرقة الخاصكية ، وهى إحدى فرق المماليك السلطانية . ثم أصبح تغرى بردى موضع رعاية مولاه ، فتقلد كثيراً من الوظائف الرفيعة فى الدولة المملوكية ، واشترك فى حوادث ذلك العهد حتى وفاة السلطان برقوق سنة

---

(١) انظر (Wiet : L'Historien Abu-l-Mahasin) فى Bulletin de l'Institut d'Egypte, XII., 2 me fasc., 1930) وراجع كذلك (Popper: Abu-l-mahasin) فى طبعة جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية لكتاب النجوم الزاهرة (Vol. VII. pp. XII—XV) .

١٣٩٨ م . وقام تغرى بردى أيام السلطان فرج بن برقوق بدور خطير فى حياة الدولة المملوكية الثانية ، ونهض بمسئوليات كبيرة ، إذ تولى نيابة دمشق ، وهى أكبر النيابات فى الدولة ، وأسهم فى مدافعة تيمورلنك عن مدن الشام ، وانهزم منه مع السلطان إلى الديار المصرية . ثم تولى تغرى بردى نيابة دمشق للمرة الثانية بعد جلاء التتر عن الشام ، واتهم أثناء ولايته عليها بتهمة الخيانة العظمى ، فشق عصا الطاعة وهرب إلى بلاد التركمان ، حيث أقام مدة منفيا . ثم عفا عنه السلطان فرج بعد ذلك ، وطلب إليه العودة إلى القاهرة ، وولاه أتابكية العساكر بالديار المصرية ؛ بل تزوج السلطان من كبرى بناته ، واسمها فاطمة ، وولاه نيابة دمشق للمرة الثالثة ؛ وما زال تغرى بردى على نيابتها حتى وفاته أوائل سنة ١٤١٢ م [١] . وفى تلك السنة نفسها مات السلطان فرج قتيلا بسيف الشرع ، على يد الخليفة العباسى والقضاة الأربع والأميرين نوروز وشيخ ؛ واعتلى عرش السلطنة المملوكية الثانية بعده ثانى هذين الأميرين ، وهو المعروف باسم السلطان المؤيد شيخ .

وترك تغرى بردى ستة أبناء وأربع بنات ، منهن خوند فاطمة زوج السلطان المتوفى . وكان أبو المحاسن أصغر أولئك

---

(١) ترجم أبو المحاسن لأبيه تغرى بردى ترجمة وافية فى كتابه النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ — ٤٣٥ .

الأولاد والبنات جميعاً إذ توفى والده وهو فى الثانية من عمره ، فتولى تربيته قاضى القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفى ، وهو زوج أخته الثانية واسمها بيرم . ثم توفى ابن العديم ، وتزوجت بيرم من قاضى القضاة جلال الدين البلقينى الشافعى ، فأكمل البلقينى تربية الصبى إلى أن كبر وانتشى وترعرع . ثم توفى البلقينى سنة ١٤٢١ م ، فصار أبو المحاسن تحت كنف جماعة من أكابر مماليك أبيه ، فتعهدوه بما حاجه من رعاية وعيش وتعليم مدنى وحربى .

وحكى أبو المحاسن عن نفسه أنه أدخل يوما وهو فى الخامسة من عمره إلى حضرة السلطان شيخ ، بعد أن علّمه بعض مَنْ معه أن يطلب إلى السلطان أن يعطيه "خبزاً" ، ومعناه فى مصطلح الدولة المملوكية إقطاع من الأرض ؛ وهذه عبارة أبى المحاسن : "فلما جلست عنده وكلمنى سألته فى ذلك ، فغمز من كان واقفاً بين يديه وأنا لا أدرى ، فأتاه برغيف كبير من الخبز السلطانى ، فأخذه بيده وناولنيه ، وقال : خُذ ، هذا خبز كبير مليح ، فأخذته من يده وألقيته إلى الأرض ، وقلت : أعطِ هذا للفقراء ، أنا ما أريد إلا خبزاً بفلاحين ، يأتون بالغنم والأوز والدجاج ، فضحك حتى كاد أن يغشى عليه ، وأعجبه منى ذلك إلى الغاية ، وأمر لى بثلاثمائة دينار ، ووعدنى بما طلبته وزيادة[1] " .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .

والواقع أن أبا المحاسن نشأ فى بسطة من العيش ، وليس من الحقّ قوله فى موضع آخر من كتابه هذا إنه عاش فقيراً من غير مال ولا عقار بعد وفاة أبيه ، لاستيلاء السلطان فرج فعلاً على جميع ماخلفه تغرى بردى من ثروة ومتاع — وإقطاع طبعاً . ذلك أن أوصياءه كفلوا نفقتـه وتنشيئه وتعليمه على أحسن وجه ، كما تشهد بذلك قائمة المشايخ الذين درس عليهم مختلف علوم عصره ، بمصر والشام والحجاز ، ومنهم المقريزى والعينى وابن حجر وابن عربشاه بالقاهرة ، وابن ظهيرة وابن العليف بمكة ، والمرعشى وابن الشماع بحلب ، وكثير غيرهم من أصلاء القرن الخامس عشر الميلادى بالشرق الأدنى من علماء المسلمين . على أنه أحبّ التاريخ من دون العلوم التى درسها وأجيز له فيها ، فلازم المقريزى — والعينى أيضاً — من أجل ذلك ، ونهج نهجهما ، واتبع أسلوبهما وغطهما فى التحصيل والكتابة الغزيرة ؛ واجتهد فى ذلك إلى الغاية ، وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره ، وهـذا فضلا عن معرفته باللغة التركية[1] .

غير أن تفضيل أبى المحاسن لدراسة التاريخ خاصة يرجع فى الغالب إلى ما استقام للعينى بواسطته من المكانة السامية التى شغلها فى بلاط السلطان برسباى ، إذ طمح هو أيضاً فى مثل ذلك لنفسه ،

---

(١) انظر تفصيل هذا كله فى مقدمة كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة القاهرة) ، ج ١ ، ص ٣ — ٢٨ .

بالوسيلة عينها لدى سلطان مقبل . فلما مات المقريزى سنة ١٤٤٢م ، والعينى بعده سنة ١٤٥١ م ، خلا الجو لأبى المحاسن ، ولم يوجد من ينازعه فى زعامة المؤرخين فى عصره . وأشار أبو المحاسن نفسه إلى ذلك فى غبطة ورضى ، وجسارة مشوبة بغرور ، إذ كتب بصدد وفاة العينى : " ولما انتهينا من الصلاة على قاضى القضاة [العينى] ، قال لى بدر الدين محمد بن عبد المنعم الحنبلى : خلا لك البرّ بيّض واسفر (١) . فلم أرد عليه ، وأرسلت إليه بعد عودتى إلى منزلى ورقة بخط العينى هذا ، يسألنى فيها عن شىء سئل عنه فى التاريخ من بعض الأعيان ، ويعتذر عن الإجابة بكبر سنه وتشتت ذهنه ، ثم أبسطَ فى الشكر والمدح والثناء إلى أن قال : وقد صار المعول عليك الآن فى هذا الشان ، وأنت فارس ميدانه وأستاذ زمانه ، فاشكر الله على ذلك ؛ وكان تاريخ كتابة الورقة المذكورة فى سنة تسع وأربعين (٢) وثمانمائة " ، أى قبل وفاة العينى بسنتين .

ومهما يكن من انتهاء الزعامة بين المؤرخين فى مصر لأبى المحاسن ، فإنه لم يتفق له أن صار نديماً دانياً لسلطان من سلاطين المماليك ، يقرأ له التاريخ فى أمسياته ، مثلما كان العينى مع السلطان

---

(١) كذا بالأصل (انظر الحاشيه التالية) ، والجملة دعابة لفظية مستمدة من عبارة " بيضى واصفرى " المشهورة .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٣٦٦ ؛ وانظر كذلك أول صفحة من كتاب حوادث الدهور — طبعة كاليفورنيا — حاشية هـ بتلك الصفحة .

برسباى . على أنه تقلد كثيراً من الوظائف فى عهود مختلفة ، وكان له من مولده وتنشيئه ، وقراباته ومصاهراته وصداقاته ، ما جعله من روّاد البلاط السلطانى . ولذا كان أبو المحاسن من المختلفين إلى حضرة السلطان برسباى ، حتى صحبه فى حلقات الصيد والنزهة والسرحة ؛ وحَسُنت صلته بالسلطان جقمق ، حتى انتظمت زياراته مجلسه مرّة كل أسبوع ، ضمن رجال العلم والأدب ؛ وكان بينه وبين الأمير محمد بن جقمق صحبة قديمة ومحبة زائدة ومصاهرة . بيد أنه لم يكن ذا حظوة لدى السلطان إينال ، حتى إن زياراته لبلاطه لم تعدُ المرة أو المرتين فى العام كله . ثم لم يلبث أن عاوده الحظ عند السلطان خشقدم الرومى ، بفضل وساطة أحد الأمراء الكبار . وعاش أبو المحاسن ليرى أوائل سلطنة قايتباى ، وليكتب فى حوادثها بما يدل على أنه لم يلق فى بلاط ذلك السلطان عناية أو قبولا .

على أن أبا المحاسن استطاع خلال حياته الطويلة — التى صرف معظمها وهو يحوم حول البلاط السلطانى — أن يكتب كثيراً فى التاريخ والتراجم ، وأن يبرع فى فنون الفروسية ، من لعب الرمح ورمى النشاب ، وسوق البرجاس ولعب الكرة بالصوالجة (Polo) ، وأن يحذق علم النغم والضروب والإيقاع ، وأن ينظم الشعر فى العربية والتركية ، وأن يحج إلى مكة مرتين سنتى ١٤٢٢ و ١٤٤٥ م . وقام أبو المحاسن فى حجته الثانية

بوظيفة باش المحمل المصرى ، وهى أقل رتبة من وظيفة أمير المحمل ؛ وجرت العادة أن يكون لهذا الأمير رجلان فى معيته يسمى أحدهما باش الميمنة ، وثانيهما باش الميسرة ، وكان قايتباى الذى تسلطن فيما بعد على الميسرة[1] فحسب .

أما مؤلفات أبى المحاسن فعددها اثنا عشر كتاباً على قول ابن الصيرفى وغيره ممن كتبوا ترجمته ، وبقى بين أيدينا من هذه المؤلفات سبعة فقط ، أشهرها كتاب عظيم فى تاريخ مصر من الفتح الإسلامى إلى سنة ١٤٦٧ م ، واسمه النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، فى سبع مجلدات ضخمة[2] . وعكف أبو المحاسن على تأليف هذا التاريخ الكبير من أجل السلطان المرجو محمد بن جقمق ، الذى عاجلته المنية سنة ١٤٤٣ م قبل أن يتحقق ذلك الرجاء ؛ وكان فى عزم أبى المحاسن أن يختتمه بحكم هذا الأمير وعدله ، وأن يجمل منه ما جمل العينى من عقد الجمان[3] . وكثيراً ما يشير أبو المحاسن فى ثنايا هذا الكتاب إلى كتاب آخر سبق له أن ألفه ، واسمه المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، وهو كتاب حافل

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ١٢٣ .

(٢) ذكر أحد المعاصرين أن أبا المحاسن اختصر هذا المؤلف فى مجلد اسمه الأنوار الظاهرة من الكواكب الظاهرة ، غير أنى لم أستطع العثور على هذا الكتاب فى المكتبات التى زرتها حتى الآن .

(٣) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٧ ، ص ٢٩٣ .

بتراجم الأعيان والنابهين من سلاطين الدولتين المملوكية الأولى والثانية ورجالها ، وبعض ملوك البلاد القريبة من المسلمين والنصارى ، من سنة ١٢٥٢ م إلى عصره ؛ ورتّبه أبو المحاسن ترتيباً أبجدياً ، وأراد به أن يكون ذيلا وتكملة لكتاب الوافى بالوفيات ، لخليل بن أيبك الصفدى المتوفى سنة ١٣٦٢ م . ثم اختصر أبو المحاسن هذا المؤلف فى كتاب سماه الدليل الشافى على المنهل الصافى ، وجعل لهذا المختصر مختصراً سمّاه مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة والخلافة ، فجاء هذا الكتاب الأخير كالهيكل العظمى ، لا يوجد به سوى تاريخ مقتضب للسيرة النبوية ، يتلوه بيانات جافة بأسماء الصحابة والخلفاء الراشدين ، والأمويين والعباسيين والفاطميين ، ومَنْ وليهم على مصر إلى سنة ١٤٣٨م .

ولأبى المحاسن مؤلَّف آخر يُكثر من الإشارة إليه كذلك فى كتاب النجوم الزاهرة ، واسمه حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، وهو ذيل لكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقريزى ، وترتيبه على السنين والشهور والأيام كترتيب السلوك ، أى أن أبا المحاسن بدأ به من حيث انتهى ذاك إلى سنة ١٤٥١ م . لكنه خالف المقريزى وغايره قليلا فى طريقته من الإطناب فى الحوادث والاقتصار فى تراجم الوفيات ، فأطال فى كل منهما ما استطاع إلا ما سبق له استيفاؤه فى كتابيه الأولين ، "لتكثر الفائدة من الطرفين" ، على قوله فى مقدمته لذلك الكتاب الأخير .

ومن مؤلفات أبى المحاسن كذلك كتاب اسمه نزهة الرأى فى التاريخ ، وكتاب البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر ؛ وهذان عدا كتب أخرى[١] لا صلة لها بصميم التاريخ ، وهى كتاب نزهة الألباب فى اختلاف الأسماء والألقاب ، وكتاب حلية الصفات فى الأسماء والصناعات ، وكتاب البشارة فى تكملة الإشارة ، وكتاب الانتصار للسان التتار ، وهو رسالة فى معانى اللغة التركية ، وكتاب فى الرياضيات والموسيقى ، وكتاب السكر الفاضح[٢] والعطر الفائح فى التصوف .

ونقد ابن الصيرفى والسخاوى مؤلفات أبى المحاسن فى عنف وشدة ، ورماه كل منهما بما خال أو شاء من تهم يستشف القارئ فى عبارتها شيئاً من الغيرة والحسد . ومن ذلك قول السخاوى ، ونصه : " وبالجملة فقد كان [أبو المحاسن] حسن العشرة ، تام العقل — إلا فى دعواه فهو محق — . . . . لطيف المذاكرة ، حافظاً لأشياء من النظم ونحوه ، بارعاً حسبما كنت أتوهمه فى أحوال الترك ومناصبهم وغالب أحوالهم ، منفرداً بذلك ،

---

(١) جميع الكتب المتقدمة موجودة ، كاملة أو ناقصة ، مطبوعة أو مخطوطة ، فى مختلف مكتبات العالم ، وما عداها فغير مقطوع بوجوده حتى الآن .

(٢) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب فى مكتبة الإسكوريال ، تحت رقم ٣٦٧ .

لا عهد له بعن عداهم ، ولذلك تكثر فيه أوهامه ، وتختلط ألفاظه وأقلامه ، مع سلوك أغراضه ، وتحاشيه مجاهرة ممن أدبر عنه بإعراضه ، وما عسى أن يصل إليه[١] نزكى ! " . وردد ابن الصيرفى هذا المعنى ، وزاد عليه أن أبا المحاسن كان " كلما فرغ من تصنيف يتوجه به إلى من يعرف العربية ، فيصلحه له ويصير له به مزية " .

ومع هذا وغيره من أقوال المعاصرين يتجلى من كتب أبى المحاسن أنه كان مؤلفاً واسع المعرفة ، شديد التدقيق والتحرى فى كتابته ، وأنه كان مجتهداً كدوداً ، أميناً بقدر ما انطوت عليه هذه الصفة من معنى عند جمهرة المؤرخين فى العصور الوسطى بالشرق والغرب ، حين لم يكن النقل وانتحال الصفحات المتتابعة من كتب السابقين والمعاصرين جريمة شنيعة . يضاف إلى ذلك أنه إذا أخذنا نقد أبى المحاسن لأخلاق الرجال الذين تناولهم فى كتبه مقياساً لخلقه ، وذكرنا قول ابن إياس فيه ، وهو الذى خلفه فى زعامة المؤرخين بمصر ، وضح لنا حقاً أنه كان " رئيساً حشماً فاضلا ... له اشتغال بالعلم ... ، مشغوفاً بكتابة التاريخ[٢] " ،

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، ج ١٠ ، ص ٣٠٥ — ٣٠٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور (طبعة القاهرة) ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

بدليل أنه لم ينقطع عن الكتابة والتأليف حتى قبيل وفاته فى يونيه سنة ١٤٧٠ م .

وعاصر أبا المحاسن اثنان ممن اشتغلوا مثله بالتاريخ المصرى ، وألفوا فيه مؤلفات قيمة ، وهما بحسب الترتيب الزمنى ابن الصيرفى والسخاوى ، وكلٌّ منهما صاحب ترجمة طويلة لأبى المحاسن تنمّ عن كثير مما قام بين مؤرخى ذلك القرن كله من تنافس وغيرة ، وحسد أحياناً وسوء دخيلة .

وكان ابن الصيرفى أكبر الرجلين عُمْراً ، وإن بدا أقلهما شهرة وتراثاً فى التأليف ، واسمه نور الدين على بن داود الصيرفى الخطيب الجوهرى الإسرائيلى الحنفى . وعُرف بين معاصريه باسم ابن الصيرفى — وابن داود كذلك . وكان مولده بالقاهرة سنة ١٤١٦ م ، أى اثنتى عشرة سنة قبل ميلاد السخاوى ، وأبوه داود صيرفىّ بدواوين الدولة المملوكية فى عهد سلطان لم تعينه المراجع التى بأيدينا حتى الآن ، وتوفى داود هذا سنة ١٤٤٩ م .

نشأ ابن الصيرفى فى كنف والده ، وتعلم تعلماً يسيراً ، كما يفهم من ترجمة السخاوى[١] له ، مع أنه تتلمذ لابن حجر العسقلانى ،

(١) انفرد السخاوى (الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢١٧ — ٢١٩) بترجمة وافية لابن الصيرفى ، وليس فى غيره من المراجع التى أعلمها ، مثل ابن إياس (بدائع الزهور ، طبعة القاهرة ، ج ٢ ؛ ص ٢٨٨) ومؤلفات ابن الصيرفى التى لم يصل إلينا منها سوى النزر القليل ، ما يضيف كثيرا إلى ما كتبه السخاوى .

ولازم مجلسه فى الإملاء وغيره ، وتحرّص الركوب فى خدمته ، حتى استثقله لذلك جماعة من تلاميذه . ويظهر أن السخاوى — وهو كذلك تلميذ لاحق لابن حجر — كان ممن ضاق بتلك العلاقة بين ابن الصيرفى وشيخه ، كما عظم عليه توليته خطابة جامع السلطان برقوق ، وذهاب ابن حجر للصلاة خلفه هناك ، ولذا جاءت ترجمته لابن الصيرفى مملوءة غمطاً وسخرية .

مارس ابن الصيرفى التجارة بعد وفاة أبيه ، مع بقائه على الاشتغال بالعلم ، وقيامه على وظيفة الخطابة بجامع السلطان برقوق وغيرها من الوظائف الصغرى ؛ فتكسب بسوق الجوهريين — ومن هنا جاء تلقيبه بالجوهرى — ، وابتنى بعض الدور بحكر الشامى بالقاهرة وأسكنها بالأجرة . ثم آل أمره يوما إلى أن نفد غالب ما عنده واحتاج ، فولاه قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفى نائباً للحكم (قاضياً) ، واشتغل بنسخ الكتب وارتفق بذلك ، فنسخ كثيراً من كتب شيخه ابن حجر وأبى المحاسن والسخاوى فى التاريخ وغيره . ومن ثمّ كان اشتغاله بالتأليف فى التاريخ بعد أن تقدّمت به السن ، وفسدت علاقته بالسخاوى وأبى المحاسن من حين ذاك ، فشنى السخاوى بسيرته عند الناس ، وامتنع أبو المحاسن من إعارته كتبا من مكتبته ، بل أخفى عنه تصانيفه مخافة أن ينقل منها . على أن ذلك لم يفلّ من عزم ابن الصيرفى ، أو يصرفه عن الكتابة ، فألف كتاب نزهة النفوس

والأبدان فى تواريخ الزمان ، وافتتحه بسلطنة برقوق سنة ١٣٨٢ م ، واختتمه عند ١٤٤٦ م ، وهى السنة الثامنة من عهد السلطان جقمق ؛ ثم كتاب أنباء الحصر فى أبناء العصر ، ولم يصل إلينا منه سوى الجزء التاسع فقط ؛ ثم كتاب سيرة الأشرف قايتباى ، وهو غير مقطوع بوجوده ، ولعله المخطوط الكائن بالمتحف البريطانى بلندن لغير مؤلف معروف . ولابن الصيرفى كذلك كتاب فى السيرة النبوية سماه الجوهرية ، ورآه أبو المحاسن وأنهاه مطالعة وقرّظه وهو راغم بخطه ، إلى جانب خطوط الكثير من المقرّظين ، على قول ابن الصيرفى نفسه .

غير أن السخاوى لم يشأ إلا أن يحطّ من قدر ابن الصيرفى ومؤلفاته ، وربما قصد بذلك أن ينتقم لنفسه منه ، لمزاحمته إياه فى صحبة ابن حجر وملازمته ، فقال : " إنه نصب نفسه لكتابة التاريخ ، فكان تاريخا ، لكونه لا تميز له عن كثير من العوام إلا بالهيئة ، مع سلوكه لما يستقبح ، بحيث .. صار الفقهاء والقضاة به مثلة .. ؛ وبالجملة فهو من سيئات الزمان ، غنى بشهرة سيرته عن مزيد البيان ، وجهله واضح الظهور . . . . . . " (١)

ولابن إياس فى ترجمته القصيرة لابن الصيرفى نقدٌ مشابه ، على الرغم مما فيه من اعتدال فى اللفظ ، ونصه أن ابن الصيرفى

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢١٨ — ٢١٩ .

"كان يكتب التاريخ مجازفة ، لا عن قائل ولا عن راوٍ ، وله فى تاريخه خبطات كثيرة ، وجمع من ذلك عدة كتب من تآليفه .. وكان لا يخلو من فضيلة(١) " .

على أن ابن الصيرفى لا يستحق هذه العبارات المريرة من معاصريه ، يشهد بذلك السخاوى نفسه فى ثنايا ترجمته له حين يعجب من كثرة مقرظيه ومريديه من أعلام عصره ، ويشهد به كذلك كاتب هذه السطور بعد أن قرأ ما استطاع قراءته من المؤلفات المذكورة ، إذ وجد بها كثيراً من تفاصيل الحقائق التى توجد مقتضبة مختصرة فى كتب الآخرين ، كأبى المحاسن والسخاوى وابن إياس . وكانت وفاة ابن الصيرفى فى يونيه سنة ١٤٩٤م .

أما السخاوى واسمه أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد ... السخاوى ، نسبة إلى بلدة سخا الحالية بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية ، فمولده سنة ١٤٢٧م ، بحارة بهاء الدين لصق باب الفتوح القديم بالقاهرة . وعاش جده محمد شيخاً فقيراً صالحاً يتكسب بتجارة يسيرة فى سوق الغزل بميدان القمح بالقاهرة ، ويكثر من الاختلاف إلى مواعيد رجال الدين ومجالسهم للإفادة والاعتبار . وكان أبوه عبد الرحمن كذلك فى معيشته وتكسبه وغشيانه مجالس رجال الدين ، وطابت صلته ببعضهم لعلمهم بتقواه

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة القاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

وتصوفه[١] . ولذا كان معظم شيوخ السخاوى ومعلميه من رجال الدين أصحاب أبيه ، ومنهم ابن حجر الذى اختص به وأحبه ، لسبق الصلة بين والده وابن حجر ، وقرب منزله من منزله . ولزم السخاوى ابن حجر أشد الملازمة ، وحمل عنه مالم يشاركه فيه غيره ، وأخذ عنه أكثر تصانيفه فى الحديث والتاريخ والتراجم ، وهذا فضلا عن مقروءاته ومسموعاته على غير ابن حجر من المشايخ . وحلا للسخاوى أن يعد هذه المقروءات والمسموعات وأصحابها ، عداً دقيقاً فى ترجمته لنفسه فى كتابه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، وهى ترجمة ضافية فى ثلاثين صفحة كاملة ، وليس فى كتابه كله ترجمة تشبهها أو تقرب منها فى السعة والإفاضة "والتمدح" بأقوال المعجبين به من المعاصرين[٢] .

وعُرف السخاوى عند بعض "أناس مخصوصين" باسم ابن البارد ، وهى تسمية اشتهر بها جده وأبوه كذلك لسبب غير واضح تماما ، لعله فيما يخص السخاوى على الأقل أنه كان عظيما عند نفسه إلى درجة لم يشاركه فيها الكثيرون من المعاصرين ، وأنه تناول معظم أعلام عصره بالتجريح والنقد ، ورماهم فى غير واحد

---

(١) ترجم السخاوى (الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ١٣٤ — ١٣٥ ، ج ٧ ، ص ١٧٥ — ١٧٧) لكل من جده وأبيه ترجمة تفيض حنانا وبراً ، وهى العمدة الوحيدة لكاتب هذه السطور فيما كتب هنا بصددهما .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٢ — ٣٢ .

من مؤلفاته بالقصور وضعف الرواية والبيان . ومع هذا فالسخاوى نشأ وعاش متمتعاً برعاية أستاذه ابن حجر وعنايته ، وبادل الشيخُ تلميذه حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص ، فصار يرسل إليه خادمه ليعلمه بوقت ظهوره فى بيته ليقرأ عليه ، بل قال فيه ، ولما يبلغ الثانية والعشرين من عمره : " إنه مع صغر سنه ، وقرب أخذه ، فاق من تقدم عليه بجده واجتهاده ، وبحريه وانتقاده[1] " وأكثر من هذا أن ابن حجر قام ليخدم بنفسه فى حفل عرس السخاوى سنة ١٤٤٤ م ، وجهد فى توظيفه بوظائف تدريس الحديث التى أهله لها أحسن تأهيل .

ثم توفى ابن حجر سنة ١٤٤٩ م ، فعزم السخاوى على الرحيل عن مصر إلى الشام ، ليسلو عن فقد أستاذه بالدرس والتحصيل هناك . غير أن أبويه ثنياه عن عزمه هذا ، فظلّ بمصر مواصلاً دراسة الحديث ، وطفق يتنقل فى سبيل ذلك بين المدن الكبرى كدمياط ومنوف والمحلة الكبرى وسمنود والإسكندرية وغيرها . واجتهد السخاوى أثناء ذلك أن يجد لنفسه وظيفة لتدريس الحديث بالقاهرة ، مستعيناً بأصدقاء أستاذه الراحل . ثم انتهى به الأمر إلى الحج مع أمه وأبيه سنة ١٤٥٢ ﻫ . فأقام بمكة بضع سنين وجاور بها ، وزار المدينة . وتنقل السخاوى ١٤٥٣م بعد ذلك بين مصر

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٣٠ .

والشام والحجاز ، فحج خمس مرات آخرها سنة ١٤٩٢ م ، وحرص على الإقامة بمكة مدة إثر كل حجة ، كما استقر بمصر أحياناً لتدريس الحديث بمدارس القاهرة ، ودأب أثناء ذلك كله على التأليف فى الحديث والتاريخ .

واتصل السخاوى بالأمير يشبك بن مهدى كاشف الوجه القبلى على عهد السلطان خشقدم ، ويشبك هذا هو صاحب الدوادارية الكبرى زمن السلطان قايتباى . وكان يشبك أعظم شخصية فى الدولة المملوكية مدّة حكم قايتباى ، وبيده فوق وظيفته الكبرى خمس وظائف أخرى ، مع ما يتعلق بها من أوقاف وأملاك ومدارس ومحسوبية ، ومن ذلك تعيينه السخاوى على إحدى وظائف تدريس الحديث التى تعب قبلا فى الحصول على مثلها أيما تعب ، وسعيه له قبل ذلك عند خشقدم ليكون مقرئاً للحديث بعد إمام السلطان . ومع هذا شاء السخاوى أن يذكر صلته بذلك الأمير الكبير فى عبارة كلها كبرياء وترفع ، وأن يقرر أن يشبك سأله فى المبيت عند السلطان خشقدم ليلتين فى الأسبوع ، ليقرأ له نخباً من التاريخ ، كما فعل العينى مع السلطان برسباى ، فتنصل وأبى ، وأنّ يشبك التمس منه أن يحضر إليه ليقرأ له تصانيفه ، فامتنع كذلك[1] . وهذا نص عبارة السخاوى فى

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ٣١ .

ترجمته لهذا الأمير البذول المحسن : " وقد تكرر اجتماعى به ، وكان حريصاً على ذلك ، بحيث رغب فى تحصيل أشياء من تصانيفى ، واسمع بعض أولاده منى بحضرته [كتاب] المسلسل [فى الحديث] ، ولو وافقته على مزيد الاجتماع به لتزايد إقباله ، ولكن الخيرة فيما قدّر[1] " .

وعُنى السخاوى بذكر مؤلفاته الكبرى والصغرى فى أربع صفحات من ترجمته لنفسه[2] ، ومنها فى التاريخ كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، فى أربعة أجزاء[3] ، وهو كما يتضح من آخر العنوان تكملة لتاريخ المقريزى المشهور ، وكان تأليفه إياه إجابة لرغبة الأمير يشبك وهو على وظيفة الدوادارية الكبرى ، أى أن السخاوى كتبه زمن السلطان قايتباى . ويظهر أن السخاوى شُغِف بتكميل كتب السابقين أو تلخيصها ،

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ — ٢٧٤ .

(٢) انظر السخاوى (الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ١٥ — ١٩) حيث توجد قائمة طويلة بأسماء كتبه ورسائله ومقالاته ، وهى جديرة ببحث الباحثين واستقصاء الراغبين فى إحياء الكتب العربية المبعثرة بمختلف مكتبات العالم .

(٣) طبع هذا الكتاب بالقاهرة من نسخة فريدة ناقصة تبتدئ من سنة ٨٤٥ هـ وتنتهى سنة ٨٥٧ هـ ، مع أنه كان يشمل حتى أواخر القرن التاسع الهجرى ، على قول السخاوى نفسه ، وهذا فضلا عن إشارات المعاصرين بصدده .

إذ ألف كتاب وجيز الكلام فى ذيل تاريخ دول الإسلام تكملة لكتاب الذهبي المؤرخ ، وكَتَب الذيل المتناهى تكملة لتأليف ابن حجر فى قضاة مصر ، كما ألف الذيل على طبقات القراء تكملة لكتاب الجزرى . أما ملخصاته فمنها كتاب المنتقى من تاريخ مكة للفاسى ، وكتاب تلخيص تاريخ اليمن لمؤلف لم يذكره ، ولعله الفاسى كذلك .

وللسخاوى فى التاريخ كذلك كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ ، وهو مقالة طويلة فى قواعد الجرح والتعديل عند المؤرخين (historiography) ، وبه صفحات ضافية فى تاريخ التاريخ وفضله بين العلوم اللازمة للمشتغلين بالحكم ومصائر الدول . وله فى التراجم كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، والجواهر والدرر فى ترجمة ابن حجر ، والقول المنبى فى ترجمة ابن عربى ، وغير ذلك كثير فى مختلف العلوم والفروع ، ولا سيما الحديث .

على أنه لابد هنا من التعريف بكتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، إذ هو معجم زاخر فى اثنى عشر جزءاً مطبوعة ، للنساء المسلمات منها جزء بتمامه . وهذا الكتاب فخر مؤلفات السخاوى ولا ريب ، برغم ما ابتلى به مؤلفه من تصغير الكبير وتحقير الصغير ممن ترجم لهم ، حتى أبسل نفسه للوم المعاصرين وتجريح اللاحقين ، ومن ذلك قول ابن إياس فيه بأنه " ألف تاريخاً فيه

كثير من المساوىء فى حق الناس[١] " ، وقول قرينه السيوطى مستفهماً مستنكراً : " ما ترون فى رجل ألّف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونصب لأكل لحومهم خواناً ، ملأه بذكر المساوىء وثلب الأعراض ، وفوّق فيه سهاماً على قدر أغراضه والأعراض هى الأغراض ، جعل لحم المسلمين جملة طعامه وإدامه ، واستغرق فى أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرّق بين جليل وحقير . . .[٢] " . واشتدّت الخصومة بين السيوطى والسخاوى مدة ، واضطرم الجدل بينهما حيناً ، فرشق كل منهما صاحبه بأنواع التهم ، حتى حال بينهما الموت ، إذ توفى السخاوى بالمدينة سنة ١٤٩٧ م ، وبقى السيوطى بعده تسع سنين .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة القاهرة — ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٢) السيوطى : الكاوى على السخاوى . (مخطوطة بدار الكتب الملكية المصرية ، رقم ١٥١٠ أدب) .

الفصل الثالث

ابن إياس ومعاصروه

ابن إياس ثالث المؤرخين الذين تداولوا الزعامة فى حلبة التأليف فى التاريخ المصرى فى القرن الخامس عشر الميلادى ، واسمه محمد بن أحمد بن إياس المصرى الحنفى (١) ، ومولده بالقاهرة سنة ١٤٤٨ م ، إحدى وعشرين سنة قبل وفاة أبى المحاسن . وابن إياس شبيه بأبى المحاسن من حيث أن كلا منهما سليل أسرة مملوكية ، على أن ابن إياس كان أقدم عرقاً فى المجتمع المملوكى ، فبينا لا ندرى من أصل أبى المحاسن سوى أخبار أبيه وأمه منذ مجيئهما إلى مصر فى عهد أستاذهما السلطان برقوق ، إذا بنا نعرف الجدّ الأكبر لابن إياس ، واسمه إزدمر العمرى الناصرى أبو ذقن ، الشهير بالخازندار . وكان إزدمر من أمراء الدولة

---

(١) أورد بروكلمان Brockelmann : Gesch. der Arab. Litt. II. p. 275) اسم ابن إياس كاملا كالآتى : " أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس زين الدين (أو شهاب الدين) الناصرى الجركسى الحنبلى " ، وكرّر نسبته إلى الحنابلة فى ملحقه للكتاب المتقدم (Ibid : Supp. II. P. 205). ، وهو خطأ يبينه أن حنبليا لم يكن بين المعروفين من مشايخ ابن إياس .

المملوكية الأولى زمن السلطانين حسن وشعبان، وتولى مدة حكم كل منهما وظيفة أمير سلاح ، ونال فى عهد ثانيهما حظوة وثقة خاصة ، فتقلب فى نيابات صفد وطرابلس وحلب ، واختير أواخر أيامه لنيابة دمشق ، ثم عاجله الموت وهو فى الطريق إليها سنة ١٤٦٦م .
ولدينا أيضاً معلومات قليلة بصدد جدّ ابن إياس لأبيه ، واسمه إياس الفخرى ، وهو من مماليك السلطان الظاهر برقوق ، وقد تأمر سريعاً ، وتولى وظيفة الدوادار الثانى زمن السلطان فرج ابن برقوق .

أما والد ابن إياس ، واسمه شهاب الدين أحمد ، فكان على قول ابنه من مشاهير أولاد الناس ، أى أنه من أفراد تلك الفرقة المملوكية التى ضمت أبناء الأمراء من المماليك المندرجين بالوفاة ، حيث جرت العادة أن يُعطى للواحد منهم إقطاع متناسب مع رتبة أمير خمسة فى النظام الحربى المملوكى رعاية لسلفه ، بشرط أن يندمج فى الرديف السلطانى ، ويكون صالحاً للخدمة فى إحدى الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم (١) . وذكر ابن إياس عن أبيه أحمد هذا أنه كان من المحببين إلى كثير من أمراء الدولة وأربابها ، وأنه عاش نحواً من أربع وثمانين سنة ،

---

(١) راجع القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥) ، ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مقالة ابن إياس .

وأنه أنجب فى حياته الطويلة خمسة وعشرين ولداً ما بين ذكور وإناث ، بقى منهم بعد وفاته سنة ١٥٠٢ م بنت وصبيان ، أحدهما محمد بن إياس نفسه ، وثانيهما الجمالى يوسف . أما البنت فلعلها هى التى مات عنها زوجها الأمير قرقماس المصارع ، وهو من أمراء العشرات زمن السلطان قايتباى ، ووظيفته أمير آخور رابع فى البلاط السلطانى ، وكانت وفاته سنة ١٤٧٢ م فى وقعة البيرة على نهر الفرات ، حيث ظفر الجيش المملوكى بقيادة الأمير يشبك بن مهدى بجيوش حسن الطويل (أوزون حسن) ملك التركمان المعروفين باسم الشاة البيضاء (Ak Koyunlu) . وأما الصبى الجمالى يوسف فكان بالزردكاشية (هندسة المدفعية) ، على عهد السلطان قانصوه الغورى ، ويظهر أنه كان خبيراً بفنه ، وبيده وظيفة رئيسة فى عمله .

يتضح من هذه الإشارات المنوعة أن ابن إياس نشأ فى وسط مملوكى بحت ، وأنه متّ إلى بعض رجال الدولة المملوكية فى عصر قايتباى والغورى بصلة المصاهرة والقرابة . غير أنه مما يدعو إلى العجب أن أحداً من معاصريه لم يترجم له بكثير أو قليل ، وأن مبلغ ما يعتمد عليه لإنشاء ترجمة حديثة لهذا المؤرخ الكبير لا يعدو نتفاً مبعثرة فى كتبه التى ألفها ؛ وعبثاً يرود الباحث غير ذلك من الكتب المعاصرة والمتأخرة ، كمؤلفات الشيخين جلال الدين عبد الرحمن السيوطى وعبد الباسط بن خليل الحنفى ،

وهما من أساتذة ابن إياس بتقريره ، وكمؤلفات السخاوى والغزّى والأعظمى والبوربنى والنجمى والمحبّى والمرادى ، وهم أصحاب كتب التراجم والسِيَر للقرن التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر للهجرة .

على أن فقدان هذه الترجمة لابن إياس لا يعجز الكاتب أو يمنعه عن محاولة الكتابة فيه ، بل هو خسارة مشوبة بربح وإن جاء سلبياً ، إذ يصبح اعتماده مقصوراً على ما هنالك من إشارات للمؤلف عن نفسه ورجال عصره فيما ألف من كتب ، فيستشف منها موقفه من الحوادث ، ويسبر بها دخائل شخصيته وأخلاقه .

ومن تلك الإشارات الخاصة بهوية ابن إياس أنه نشأ كأبيه شهاب الدين أحمد ، وكأبى المحاسن كذلك ، فى فرقة أولاد الناس (١) .

وحج ابن إياس سنة ١٤٧٧ م دون أن يقوم على وظيفة معينة فى الركب المصرى ، كتلك التى أسندت إلى أبى المحاسن فى حجته ، على أنه شهد ما لقيه الحاج ذاك العام من عنت وغلاء وفناء بمكة ، بسبب ما وقع وقت ذاك بين السلطات المملوكية وبعض المكيين ، وجاء وصفه لما حدث برهانا على ما هنالك من دَخَنٍ دائم وكره متبادل ، بين ممثلى السلطان وذوات الحجاز وأمرائه ، طوال عهد المماليك .

وظل ابن إياس معظم حياته متمتعاً بإقطاع وافر ، يرجح

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٤ ، ٤٧ .

أنه من لدن السلطان الغورى ، فعاش عيشة راضية ، واشتغل بالكتابة والتأليف فى التاريخ ، ونَـظَم الشعر والزجل والمواويل والموشحات والمزدوجات ، فى مناسبات شتى .

على أن منظومات ابن إياس توجب الالتفات : فمنها ما هو مدح أو رثاء لسلطان أو سلطانة أو أمير ، ومنها ما هو تهنئة بالشفاء من مرض أو النجاة من محنة لعين من أعيان الدولة ، ومنها ما هو نقد أو تعقيب على بعض الأعمال الحكومية . فهل نستخلص من تلك القرائن ، كما فعل مارجوليوث (Margoliouth) ، أن ابن إياس تولّى وظيفة مؤرخ الدولة (Historiographer) فى الحكومة المملوكية ، برغم أنه لم يذكر شيئاً من ذلك على التعيين فى كتبه ، وبرغم أن وظيفة بهذا الاسم لم تُعرف فى نظام المماليك ؟ أو نقول بأنه غدا من رجال الأدب المشغوفين بالعيش على هامش الحاشية السلطانية ، المتصلين ببعض رجالها كأبيه من قبل ، وإنه اعتمل نظم الشعر اجتذاباً للشهرة ، كلما واتته فرصة ؟ أو نرجح أنه أراد لنفسه مع السلطان محمد بن قايتباى مركزاً مشابها لمركز العينى مع السلطان برسباى ، أو لمركز أبى المحاسن مع السلطان المرجوّ محمد بن جقمق .

على أنه مهما يكن من ترجيح أو ميل لهذا أو ذاك أو غيره مما يحتمل أن يكون وظيفة لابن إياس فى المحيط المملوكى ، فالواضح من أشعاره هذه ، ومناسباتها الخاصة والعامة ، أنه عاش فرداً متتبعاً عن كثب حوادث المجتمع الذى تقلب فيه ، وليس ذلك بصفته

مؤرخاً معنياً بتدوين الحوادث والأخبار ، بل لأنه كان رجلا حياً حساساً بما يجرى فى دولة بدت عليها مخايل الاحتضار والزوال ؛ وربما كان أوضح دليل على هذه الحساسية فيه قصيدته بصدد ضرائب المشاهرة التى ألغاها السلطان الغورى أواخر أيامه ، ومرثيته التى قالها فى وقعة الفتح العثمانى لمصر .

وحدث لابن إياس فى منتصف سنة ١٥٠٨ م ما عكّر عليه صفو حياته المطمئنة ، إذ تأزّمت أحوال السلطان الغورى لضيق سبل المال اللازم للصرف على مماليكه ، فعمد إلى إخراج أولاد الناس من أجناد الحلقة عن إقطاعاتهم ، وقطع الرزق الأحباسية والأوقاف عن أهلها ، وأطلق لمماليكه العنان ليهاجموا أصحاب تلك الإقطاعات فى بيوتهم ، ويأخذوا منهم مناشيرها غصباً وضرباً ، إذا احتاج الأمر إلى الضرب والإخراق و " البهدلة " . ونال ابن إياس من تلك الكارثة ما نال غيره من أبناء طبقته ، فذهب عنه إقطاعه الوافر إلى أربعة من المماليك بمكاتبات سلطانية ؛ غير أنه لم يبق بغير إقطاع مدة طويلة ، إذ وقف للسلطان الغورى أوائل سنة ١٥١٠ م بقصة يشكو فيها حاله ، وقدمها إليه وهو فى طريقه للعب الكرة بميدان القلعة ، فاستجاب السلطان شكاوته ، وردّ عليه إقطاعه ؛ ومدحه ابن إياس من أجل ذلك بقصيدة طويلة من نظمه المعتاد .

غير أن ابن إياس لم يكن من المعجبين حقاً بالسلطان الغورى

وأعماله ، يشهد بذلك ما كتبه بصدده بعد وفاته فى كثير من المناسبات بكتابه الكبير فى التاريخ ، واسمه بدائع الزهور فى وقائع الدهور . وهذا الكتاب الشامل لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العهد العثمانى ، هو الذى جعل ابن إياس خليقاً بمركز الزعامة بين معاصريه من المؤرخين فى مصر ، أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى . وبدأ ابن إياس تأليف كتابه هذا حوالى سنة ١٤٩٣ م ، وظل معنيا به حتى أواخر أيامه ، فجاء فى أحد عشر جزءاً ، وكان فى عزمه أن يضيف إليه ليكتمل اثنى عشر جزءاً[١] ، لولا موته سنة ١٥٢٤ م . ثم تناول النساخون هذا الكتاب ، فنقلوا منه نسخاً بعضها كاملة وافية ، وبعضها مختصرة ناقصة ، والثانية هى أغلب ما بأيدينا منه حتى الآن ، ومن إحدى هذه النسخ الناقصة نُشر الكتاب فى القاهرة ، فجاء بعيداً عن الأصل ، خلواً من أهم جزء من أجزائه[٢] .

---

(١) تملك مكتبة فاتح باستامبول أربعة أجزاء غير متتابعة من هذا الكتاب وهى بخط المؤلف ، وفى حردها (Colophon) أنه انتهى من كتابة الجزء الرابع أوائل سنة ٩١٠ هـ (١٤٩٥م) ، ومن الخامس أواخر تلك السنة الهجرية نفسها ، ومن الثامن أواسط سنة ٩١٣ هـ (١٥٠٧ م) ، ومن الحادى عشر أواخر ٩٢٨ هـ (١٥٢٢م) . ووعد ابن إياس فى نفس الصفحة التى وردت بها الإشارة الأخيرة أنه سوف يقوم على كتابة الجزء الثانى عشر ، وهو مالم يكتبه بسبب وفاته ، أو أنه كتبه ولم يعثر عليه أحد حتى الآن .

(٢) أدركت هذا النقص جمعية المستشرقين الألمان باستامبول ، فنشر =

ومن مؤلفات ابن إياس فى التاريخ كذلك كتاب عقود الجمان فى وقايع الأزمان ، وهو مختصر مستقلّ لتاريخ مصر ، وليست له أية علاقة بكتابه الكبير أو بالنسخ المختزلة منه ، ثم كتاب نزهة الأمم فى العجائب والحكم ، وهو تأليف صغير فى تاريخ العالم ، وكتاب مرج الزهور فى وقائع الدهور ، وهو مؤلف شعبى فى قصص الأنبياء والرسل ، وربما كان لغير ابن إياس من المؤلفين ، رغم إشارته هو لبعض محتوياته فى الفصل السابع من الجزء الأول من بدائع الزهور . ولابن إياس كذلك كتاب نشق الأزهار فى عجائب الأقطار ، وهو كتاب فى الفلك والهيئة وتركيب الكون (Cosmography) ، وآثار مصر الفرعونية وملوكها . وذكر ابن إياس فى مقدمته لهذا الكتاب أنه قصد بتأليفه أن يجمع فيه أغرب ماسمع وأعجب ما رأى ، ولا سيما " عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة فى البرابى " ؛ وكان فراغه منه سنة ١٥١٨ م ، وكثيراً ما استمدّ منه علماء أوربا فى القرن التاسع عشر الميلادى .

على أن شهرة ابن إياس تستند كلية إلى كتابه الأول فى التاريخ ، إذ صار به عمدة المؤرخين فى أحوال دولة المماليك وأخبارها مدّة الطور الأخير ، والمرجع الرئيس لحوادث فتح

= الأستاذ كاله Kahle ، والدكتور محمد مصطفى ، والمرحوم سوبرنهيم (Sobernheim) ، ثلاثة أجزاء جديدة من هذا الكتاب .

العثمانيين لمصر ، في أسلوب بديع ؛ ولذا ميزه مارجوليوث عن جمهرة المؤرخين المسلمين في مصر وغيرها بقوله : " إن أسلوبه في الكتابة والتأليف ، ونمطه في التفكير ، ينم كل منهما عن فردية واستقلال في الرأي قل أن يقربه فيه معظم المؤرخين[١] " .

والواقع أن ابن إياس كان على جانب من القدرة في النقد ، فلم يقنع بسرد الحوادث والوقائع والوفيات على وتيرة أغلب السالفين من كتاب التاريخ ، بل وقف بين الحادثة والأخرى يشرح ويعقب ويفلسف ، مع شيء من القسوة في الحكم ، والجرأة في التقدير ، والمغالاة نوعا في التصوير . وربما شجعه على ذلك اتصاله ببعض أعيان البلاط السلطاني في عهود مختلفة ، كالأمير تمراز الأتابك ، والأمير أقبردي الدوادار الكبير ، وكلاهما من رجال عصر قايتباي ، وكأبي بكر بن مزهر ، وولده البدري محمد ، والقاضي محمود بن أجا ، وهم ممن شغل وظيفة كاتب السر في الدولة ؛ وهذا فضلا عن صلته بأخيه الجمالي يوسف ، الذي أمده بما جرى بالقلعة من أخبار ، ولا سيما أخبار المدفعية التي عنى ابن إياس بتدوينها والإشارة إلى إهمالها على عهد الغوري .

أما عن أخلاق ابن إياس ، فلا سبيل لمعرفة ما اشتهر به من صفات عند معاصريه ، ما دام الموجود من كتب المعاصرين والمتأخرين لا ينبئ عنه بشيء ألبتة . على أن كتبه التي ألفها ،

---

(١) انظر (Margoliouth : Lectures On Arabic Historians P. 159)

وملاحظاته التى أودعها إياها عن نفسه وحوادث عصره ورجاله ، تَدُلّ على الكثير من كنه شخصيته الكبيرة : فضخامة مؤلفاته برهان على أنه ظلّ طول حياته مجداً فى الكتابة ، ودؤوبه على تدوين الحوادث يوماً يوماً وشهراً شهراً فى الأجزاء المعاصرة من تاريخه يشهد بدقة ملاحظته وشدة استقصائه للحقائق ، وقسوته فى الحكم على الناس تخبر بعلو مستواه الخلق ، وتناوله الحكم العثمانى فى مصر بالنقد والسخرية أحياناً لإهمال رجاله مصالح المصريين — وذلك برغم ما أحاط السيادة العثمانية فى القاهرة من رهبة وخشية — يعطيه مكانة سامية بين المؤرخين وغير المؤرخين . ومن يدرى ؟ ربما كان موقفه هذا من الحكم العثمانى هو السبب فى خفاء ترجمته من كتب التراجم .

ولابن إياس معاصرون أربعة من المؤرخين ، وهم السيوطى ، وابن خليل ، وابن طولون الدمشقى ، وابن زنبل الرمال . ولكل من أولاء فضل معلوم وسهم ظاهر فيما تجمّع للتاريخ المصرى من تراث محفوظ ؛ وإذا لم يبلغ أحدهم مبلغ ابن إياس ، أو يقربه فى المقدرة على التأليف الضخم فى التاريخ ، فذلك راجع إلى أن ابن إياس قصر نفسه على الكتابة فى ذلك الفرع وما يتصل به فقط (وهذا عدا نظم الشعر أحياناً) ، على حين أن معاصريه أولئك اشتغلوا بالتاريخ وغيره من العلوم والفنون والصناعات . ومَثل ذلك السيوطى صاحب الأخبار الطوال فى أشتات العلوم

فى عصره ، فإنه لم يترك ميداناً من ميادين المعرفة دون أن يُجرى فيه قلمه ، وهذا فضلاً عن تدخله فى بعض المسائل العامة فى عصره.

وُلد جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطى ، سنة ١٤٤٥م بالقاهرة ، من أسرة ينتهى أصلها إلى شيخ من أهل الحقيقة والتصوف اسمه همام الدين الخضيرى — نسبة إلى محلة الخضيرية[1] ببغداد . وجاء هذا الشيخ إلى أسيوط ، وعاش بها زمن الدولة الأيوبية ترجيحاً ، وأقامت أسرته بها جيلا بعد جيل ، وأخرجت رجالا نابهين فى المجتمع الأسيوطى فى العصور الوسطى ؛ فنهم نائب الحكم (القاضى) ، والمحتسب ، والتاجر ، والمتموّل الخيّر ؛ ومنهم من اتصل بالأمير شيخو الناصرى إبان قيامه على إخماد ثورة الأحدب بالصعيد سنة ١٣٥٣ م ، فى عهد السلطان صالح بن الناصر أحمد ، وهذا الأمير هو صاحب الجامع والخانقاه المعروفين باسمه بسويقة منعم فيما بين الصليبة والرميلة بالقاهرة الحالية[2] . أما محمد أبو عبد الرحمن السيوطى فهو آخر من

---

(١) يظهر أن هذه النسبة ليست بنجوة من الشك ، على الرغم من أن السيوطى نفسه (حسن المحاضرة ، ج١ ، ص ١٥٥) هو الذى رجحها . ذلك أنه كان بأسيوط وبالقاهرة كذلك موضع اسمه الخضيرية زمن السيوطى ، وربما كان ترجيحه لمحلة بغداد من باب إرجاع أصله إلى جهة بعيدة عظيمة الشأن ، لاسيما أنه جهد فى أحد كتبه الصغرى أن يقول كذلك إنه أنصارى جعفرى الأرومة ، وإن جده من أم شريفة النسب .

(٢) انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٣١٣ ، ٤٢٠ ؛ والسيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

أقام من تلك الأسرة بأسيوط ، إذ انقطع من دون رجالها جميعاً لطلب العلم والتعليم ، ورحل من أجل ذلك فى حداثته إلى القاهرة ، وأفاد على ما يظهر من صلة سلفه بالأمير شيخو ، فتولى درس الفقه بالجامع الشيخونى ، وخطب بجامع ابن طولون ، وألف كثيراً فى الفقه والنحو ، وتوفى فى عشر الخمسين ، سنة ١٤٥١ م ، ولما يبلغ ابنه عبد الرحمن ست سنين (١) .

وكانت والدة عبد الرحمن أم ولد تركية ، أنجبته وأبوه بالغ فى السن مبلغ النضج ، فجاء عبد الرحمن ناضجاً من يومه ، على قول الإخصائيين فى علم الأجناس . وكأنما توسّم فيه والده شيئاً من ذلك ، إذ قرّت به عيناه حين رزقه وهو مشرف على الخمسين ، فعنى بتعليمه أشد عناية ، وحفظه جزءاً كبيراً من

---

(١) ترجم السيوطى لأبيه فى كتابه حسن المحاضرة (ج ١ ، ص ١٥٥ ، ٢٠٨ — ٢٠٩) ، وفى بغية الوعاة فى طبقات النحاة (ص ٢٠٦ — ٢٠٧) . والسيوطى نفسه غنى بترجمته المعاصرين والمتأخرين والمحدثين ، إذ يوجد له عدا ترجمته الذاتية فى حسن المحاضرة (ج ١ ، ص ١٥٥ — ١٦١) ، ترجمة فى كل من السخاوى والشعرانى والغزى ، والبوريني وابن العماد الحنبلى وابن إياس ، وعلى مبارك باشا ودائرة المعارف الإسلامية وفيليب حتى . ويوجد فى ابن طولون الدمشقى (الفلك المشحون ، ص ٦) إشارة إلى ترجمة ذاتية أخرى للسيوطى فى كتابه بغية الوعاة ، غير أن المطبوع من هذا الكتاب لا يشمل ترجمة له ألبتة . وذكر اليمنى (السنا الباهر ، ص ٧٧) أن للسيوطى كذلك ترجمة ذاتية ثالثة فى كتاب له اسمه التحدث بنعمة الله تعالى ، وهذه عدا ما هنالك من تراجم أخرى بقلم تلميذيه الشاذلى والداودى .

القرآن ، واستصحبه أكثر من مرة إلى مجلس ابن حجر فى الحديث . وغدا عبدالرحمن محظوظاً كذلك فى أوصيائه ، إذ لحظوه برعايتهم ونظرهم ، ونجحوا فى تقريره على وظيفة الجامع الشيخونى بعد وفاة أبيه ، ولذا نشأ يتيماً ناعم البال .

واستطاع عبد الرحمن أن يختم القرآن ، وهو دون الثامنة من عمره ، فدل بذلك على ذاكرة قوية وحافظة واعية . ثم أخذ فى طلب العلم بأنواعه ، فلم يتعاص عليه فرع أو يتعاظمه فن ، إلا الحساب فإنه ثقل عليه النظر فيه لعدم ملاءمته طبيعته ، وإلا المنطق فإنه كرهه وعزف عنه لسبب مشابه . أما ماعدا ذلك من العلوم ، كالتفسير والحديث والفقه ، والنحو والمعانى والبيان والبديع (على طريقة العرب والبلغاء ، لاعلى طريقة العجم وأهل الفلسفة) ، وأصول الفقه والجدل ، والتصريف والإنشاء والترسل ، والفرائض والقراءات والطب، فالسيوطى نفسه قال إنه درسها حتى بلغ فيها درجات متفاوتة فى الكمال ، وإنه رزق التبحر فى السبعة الأولى منها حتى فاق أشياخه كلهم — فضلا عمن هو دونهم علماً وزمناً — ، وإنه اخترع علم أصول اللغة ودوّنه ، وإنه وصل إلى مرتبة " المجتهد المطلق " فى الحديث والفقه والعربية باجتماع " آلات الاجتهاد " كلها لديه ، ولو شاء أن يكتب فى أية مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، مع الموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدر على ذلك

كله تماماً فى غير عناء . ولا غرو فى ذلك مادام أن السيوطى نفسه قال مرة لشيخه السخاوى وهو يحاوره نظما : " على كبحر من الأمواج ملتطم " .

بلغ عبد الرحمن السيوطى ذلك المقام الزاخر من العلم — مع المباهاة العريضة بكيفه وكمه لديه — بعد حياة دراسية طويلة بالقاهرة ، وأسفار كثيرة فى البلاد المصرية وغيرها . وتفصيل ذلك بتقريره أنه درس على ستمائة شيخ من شيوخ عصره بمختلف البلاد ، وأنه سافر من أجل ذلك إلى مراكز العلم بدمياط والإسكندرية ، والمحلة الكبرى والفيوم ، ومكة حيث حج وجاور سنة كاملة . وقد تجمعت لديه أثناء ذلك كله براءات وشهادات وإجازات كثيرة ، أولها إجازة بتدريس اللغة العربية سنة ١٤٦١م ، وعمره وقتئذ سبعة عشر عاماً ، ومن المعروف أنه بدأ التأليف تلك السنة بكتاب فى شرح الاستعاذة والبسملة .

على أن السيوطى لم ينصرف إلى تدريس اللغة العربية على ما يظهر ، بل باشر تدريس الفقه بالجامع الشيخونى الذى لم تنقطع عنه وظيفته منذ وفاة أبيه ؛ وكان تعيينه هناك بسفارة شيخه البلقينى سنة ١٤٦٥م . ثم تصدى السيوطى للإفتاء وإملاء الحديث ، بجامع ابن طولون سنة ١٤٦٧ م ؛ وأضيف إليه تدريس الحديث ووظيفة الإسماع بالخانقاه الشيخونية سنة ١٤٧٢ م ، بمساعدة الأمير إينال الأشقر ؛ كما تولى مشيخة التصوف بتربة برقوق نائب الشام التى

تقع بباب القرافة الحالية ، بعناية بلديّه أبي الطيب السيوطي .
وبقي السيوطي متولياً تلك الوظائف كلها حتى ناهز الأربعين من عمره ، ثم انتقل عنها إلى مشيخة الخانقاه البيبرسية سنة١٤٨٦م ، وهي أكبر خوانق القاهرة وأوسعها[١] أوقافاً في عصره ، وصاحب الفضل في تعيينه عليها الخليفة المتوكل على الله عبدالعزيز العباسي . ومن ثمّ انقطع السيوطي عن التدريس والإفتاء والإملاء والإسماع ، وأخذ في التجرّد للعبادة كما قال الشعراني ، أو أنه انجمع وتمشيخ على قول السخاوي . وشرع السيوطي منذئذ في تحرير مؤلفاته ، وربما ألهاه التكاثر عن الإتقان ، فلم يمعن في بعض الأحيان ، بل جرى قلمه بالتأليف السريع حتى أربت كتبه على الخمسمائة ، سوى ما غسله ورجع عنه ، ولذا جاءت أكثر مؤلفاته[٢] جمعاً لا تأليفاً .

وهال المعاصرين والمتأخرين والمحدثين أن ينسب ذلك العدد الجمّ من الكتب إلى مؤلف واحد ، وفسره السخاوي بأن السيوطي اختلس كثيراً من تصانيف ابن تيمية وابن حجر والسخاوي وغيره ، من مجموعة عُثر عليها كلها بمكتبة المدرسة

---

(١) المقريزي (المواعظ والاعتبار — بولاق — ج ٢ ، ص ٤١٦) .
(٢) لم تقتصر كثرة المؤلفات على السيوطي وأشباهه من المؤلفين المسلمين ، بل صدقت تلك الظاهرة كذلك على بعض المؤلفين الغربيين في العصور الوسطى ، ومثال ذلك رامون لول الإسباني ، إذ بلغت مؤلفاته خمسمائة . انظر (Alison Peers : St. John of the Cross. p. 61)

المحمودية ، وأنه عدّل فيها يسيراً ، وقدّم وأخّر ، ونسبها لنفسه بعد أن هوّل فى مقدّماتها .

غير أنه مهما قيل فى هذا الباب ، فإن تهمة الاختلاس لا يمكن أن تنصبّ على جميع مؤلفات السيوطى ، بل لدينا من حقيقة الحال العلمية فى عصره ، ومما يستطاع استنتاجه من نفسيته وعقليته وأخلاقه وأحواله ، ومن بساطة المسائل التى أفرد لها كثيراً من كتبه ، ومن أحجام تلك الكتب التى أدمجها فى تعداده الضخم ، ما يساعد على تعليل ذلك التكثر الخارق فى التأليف تعليلا معقولا . ذلك أن عصر السيوطى — وهو الحقبة الأخيرة من عهد المماليك عصر المستقلة — كان عصر الجمع والتلخيص والتكميل والشرح والحواشى ، وليس به فى الواقع من المؤلفات — فيما عدا الكتب التاريخية — ما يصح أن يوصف بغير ذلك من الصفات . ومثال ذلك من كتب السيوطى الكبرى كتاب تكملة تفسير القرآن للشيخ جلال الدين المحلى ، والمعروف أن السيوطى أنهاه فى أربعين يوماً ، وكتاب طبقات الحفاظ ، وهو تلخيص وتكملة للذهبي ، وكتاب لب اللباب فى تحرير الأنساب ، وهو اختصار لعز الدين بن الأثير ، واستغرق السيوطى فى إنجازه عشرة أيام فقط . ثم أن السيوطى اعتقد فى نفسه أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق فى الحديث والفقه والعربية ، وأنه لو شاء أن يكتب فى كل مسألة مصنفا تامّا لاستطاع كما تقدّم ،

وأنه المبعوث على رأس المائة التاسعة للهجرة ، وأنه رأى النبي عليه الصلاة والسلام وخاطبه فى اليقظة والمنام خمسين مرة ، فتطلبت منه تلك الدعاوى أن يكتب كثيراً ليدعم أقواله . يضاف إلى ذلك أن السيوطى عاش غضوبا ، تكلفه الغضبة الواحدة رسالة أو أكثر يكتبها فى يوم أو ليلة . ليردّ بها على من أغضبه أو خالفه أو سخر منه[1] . ومن الأمثلة الدالة على أثر ذلك كله فى عدد مؤلفات السيوطى كتاب إرشاد المهتدين فى نصرة المجتهدين ، وكتاب الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض ، وكتاب التنبئة عن يبعثه الله على رأس كل مائة ، وكتاب الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف[2] ، وكتاب تنوير الحلك فى إمكان رؤية النبي والملك . ثم إنه دأب على التدخل فى

---

(١) قال السيوطى ، نقلا عن الشعرانى (ذيل الطبقات الكبرى ، ص ٤) : " وخالفنى أهل عصرى فى خمسين مسألة ، فألفت فى كل مسألة مؤلفاً بينت فيه وجه الحق " ، وهذا عدا ما كتبه لتبرير موقفه من مسائل معينة كما سيلى . انظر كذلك ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٢) أشار السيوطى إلى مسألتى اجتهاده ومبعوثيته إشارات خفيفة فى كثير من مؤلفاته ، غير أنه خلع النقاب تماما فى هذا الكتاب ، إذ قال : " فإن ثم من ينفخ أشداقه ويدعى مناظرتى ، وينكر على دعوى الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائة ، ويزعم أنه يعارضنى ويستجيش علىّ بمن لو اجتمع هو وهم فى صعيد واحد ، ونفخت عليهم نفخة واحدة صاروا هباء منثوراً . (راجع مقدمة الدكتور فيليب حتى لكتاب نظم العقيان ، صفحة ش — ص) .

المسائل العامة فى عصره ، ومثل ذلك قيامه فى مسألة ابن الفارض سنة ١٤٧٠ م ، وكتابته فى ذلك مقامة اسمها قمع المعارض فى نصرة[1] ابن الفارض ، وإفتاؤه من غير تفويض بأنه لا يجوز البناء على ساحل الروضة ، لأن الإجماع منعقد على منع البناء فى شطوط الأنهار الجارية ، وله فى ذلك "كتاب" كذلك . ثم إن السيوطى أحب التسلى بالكتابة فى موضوعات واهية تافهة ، ومثل ذلك كتاب الإسفار عن قلم الأظفار ، وكتاب بلوغ المآرب فى قص الشارب ، وكتاب الوديك فى فضل الديك ، وكتاب مسألة ضربى زيداً قائماً ، وكثير من هذه لا يعدو كراسة أو ورقة أحيانا .

ومهما يكن فليس لجميع جولات السيوطى فى علوم عصره ومسائله الخاصة والعامة متسع كاف[2] بهذه السطور ، إذ البحث محدود بعنوانه ، والتعريف فيه بالسيوطى قاصر على تقديره بين المؤرخين بمصر فى حقبة معينة ، فلا يجب أن تطغى كثرة القول فى غير ذلك من أشتات نشاطه على ما هنالك من غرض أصلى ، وهذا بالإضافة إلى أن مؤلفاته التاريخية ليست سوى شىء قليل

(١) انظر ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ج٢ ، ص١١٩ ؛ ومجموعة مؤلفات السيوطى الصغرى ، بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٩٨ مجاميع .

(٢) راجع السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

بالقياس إلى كتبه فى غير التاريخ من العلوم . ومن تلك المؤلفات التاريخية كتاب حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة ، فى جزءين ، وهو تاريخ للبلاد المصرية والقاهرة عاصمتها ، مع بعض فصول إضافية فى النظم المملوكية وأساليبها ، وطبقات العلماء والأصلاء والصوفية فى مصر ؛ وقد كتبه السيوطى فى عصر السلطان قايتباى ، واعتمد فى تأليفه على ثمانية وعشرين مؤلفاً عدّدها فى مقدمته . ومن مؤلفاته كذلك كتاب تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، وكتاب تاريخ السلطان الأشرف قايتباى ، وكتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، وهو كتاب شعبى فى التاريخ العام ، وكتاب تاريخ أسيوط ، وكتاب كوكب الروضة ، وهو تاريخ لجزيرة الروضة جنوبى القاهرة ، ألفه السيوطى سنة ١٤٨٩ م ، ونقل فيه كثيراً مما كتب المقريزى فى هذا الموضوع ، وكتاب تاريخ العمر ، وهو ذيل على أنباء الغمر لابن حجر ، وكتاب المنتقى من تاريخ ابن عساكر ، وكتاب الشماريخ فى علم التاريخ ، وهو رسالة قصيرة فى أصل اتفاق المسلمين على جعل الهجرة النبوية مبدأ للتاريخ الإسلامى ، وإجماعهم على اعتبار المحرم أول الشهور ، مع شرح وتعليل لأسماء الشهور الهجرية . وللسيوطى عدا ذلك كتب كثيرة فى التراجم والطبقات ، ومنها كتاب نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، وكتاب بغية الوعاة فى طبقات النحاة ، وكتاب الملتقط من الدرر الكامنة ، وهذا فضلا عن مؤلفاته فى سائر علوم عصره .

وقيل بحق إنّ السيوطى لم يكن مؤلّفاً فى معظم هذه الكتب التاريخية وغيرها ، بل إنه جمع فأوعى فقط ، واختصر ولخص فحسب ، وربما نسب لنفسه مؤلّفات لغيره ، كما قرّر السخاوى . على أنّ ذلك ليس بالقليل – أو الغريب – فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب ، ولم يسلم من تلك التهمة كلّ من المقريزى وأبى المحاسن ، وهما من أساطين المؤرخين بمصر فى القرن الخامس عشر الميلادى . ثم إنه ليس من النَّصَفة فى شىء أن يقاس السيوطى وغيره بمقاييس اليوم ، بل إن فضل السيوطى فيما صنع على وجه العموم واضح — وإن جاء فضلاً مشوباً — إذ حفظ بتلك الطريقة كتباً مفقودة أصولها حتى الآن ، ولولا قلمه لما وصل منها شىء للمتأخرين . ثم إن السيوطى وضّح بطريقته هذه حال العلوم والعلماء فى عصره ، ونفّق كتباً ظلّت بعيدة عن متناول الناس والعامة لندرتها أو ضخامتها ؛ وانتشرت تلك الكتب فى ثوبها المختصر إلى جميع البلاد الإسلامية ، من مراكش والتكرور إلى الهند واليمن ، وذاع معها صيت السيوطى ذيوعاً يشهد به وجود الكثير منها بخطه ، فى مختلف المكتبات الإسلامية وغير الإسلامية القديمة ، ولا سيما بالهند .

ومما أعان السيوطى على التفرّغ لكتابة ما كتب من مؤلّفات ضخمة ورسائل صغيرة ، أنه ظل طويلا على مشيخة البيبرسية متمتعاً بوظيفتها الوافرة ، منذ تولاّها أواخر عهد قايتباى ،

وهذا على الرغم من قيام بعض أعدائه من القضاة وغيرهم بالوقيعة به عند ذلك السلطان الطيّب . غير أنه أغضب قايتباى آخر سنة من حكمه (١٤٩٥ م) ، بسبب طلوعه إلى حضرته فى مسألة وعلى رأسه الطيلسان ، مخالفاً بذلك بعض التقاليد المرعية ؛ ومع أنه عوتب على مخالفته ، فإنه أصر على صحة موقفه ، وكتب فى ذلك رسالة اسمها الأحاديث الحسان فى فضل الطيلسان . وامتنع السيوطى من بعد ذلك عن الطلوع إلى السلطان ، بل رفض أن يذهب مع العلماء لتهنئته بالشفاء من مرض ألمّ به ، محتجاً بأن عدم طلوع العلماء للملوك سنّة ، وألّف فى ذلك كتابا سمّاه ما رواه الأساطين فى عدم المجىء إلى السلاطين (١) .

ومع هذا كلّه بقى السيوطى على وظيفته بالبيبرسية حتى وفاة قايتباى . غير أنه أفسح لأعدائه بمواقفه هذه سبيلاً إلى تأجيج النار عليه ببلاط السلطان الجديد ، وهو محمد بن قايتباى ؛ وكأنما أحسّ السيوطى بما سوف يناله قريباً من عزل عن وظيفته الرغيدة ، فحسّن للخليفة المتوكل على الله عبد العزيز العباسى سنة ١٤٩٦م أن يولّيه قاضياً كبيراً على جميع القضاة بمصر والشام وسائر الممالك الإسلامية المجاورة ، وأن يجعل بيده الولاية والعزل فيهم مطلقاً ، وهى وظيفة لم يحرزها قط فى العالم الإسلامى سوى القاضى تاج الدين ابن الأعز فى الدولة الأيوبية ، بعد أن صار لتلك الدولة سيادة

---

(١) الشعرانى : ذيل الطبقات الكبرى ، ص ١٩ — ٢٠ .

فعلية على جميع بلاد الشرق الأدنى . على أن السيوطى لم يفكر فى تلك الوظيفة لتكون له مخرجاً من البيبرسية فحسب ، بل يظهر أنه أراد أن يستخدمها فى النيل من بعض أعدائه ، وربما رأى فيها تحقيقاً لما قال به من وجوب قيام الخلافة القطبية الباطنة فوق الخلافة العباسية الظاهرة[١] . ثم قامت القيامة بين القضاة والناس ، حين شاع أن الخليفة عهد إلى السيوطى بتلك الوظيفة ، وما زال القضاة بالخليفة حتى أشهدوا عليه بالرجوع عنها ، واعترف للملأ بأن السيوطى هو الذى اقترحها عليه[٢] .

ثم حدث فى سنة ١٤٩٧ م ، أن قطع السيوطى جَمِيلة الصوفية بالخانقاه البيبرسية ، بحجّة أنهم خانوا طريقتهم ونسوا صوفيتهم ، فثار ثائرهم عليه ، وحملوه بأثوابه ورموه بفسقية الخانقاه ، وكادوا أن يقتلوه . وافترص أعداؤه تلك الفرصة ، ومنهم الأمير طومان باى الدوادار ، فحوكم السيوطى وثبت لدى قضاته أن طمعه أفسده ، وأن تفكيره فى الاستيلاء على دراهم الصوفية الفقراء جعله غير صالح للبقاء فى مشيخته ، ولذا عُزِل . واعتكف السيوطى من ثَمّ فى بيت له بجزيرة الروضة[٣] ، حتى

---

(١) انظر السيوطى : كتاب التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة . (دار الكتب المصرية ، رقم ٩٨ مجاميع) .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور بولاق — ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ ؛ فيليب حتى : مقدمة نظم العقيان ، صفحة ر .

إنه لم يفتح شبابيكه المطلة على النيل مدّة ، وكتب فى ذلك رسالة اسمها تأخير الظلامة إلى يوم القيامة . على أن محنته لم تنته بتلك الحادثة ، إذ تسلطن طومان باى الدوادار سنة ١٥٠٠ م ، وخاف السيوطى بطشه ، فاختفى بجهة غير معلومة ، وظلّ مختفياً شهوراً حتى وفاة هذا السلطان وتولية قانصوه الغورى بعده أواخر تلك السنة . وعندئذ رجع السيوطى إلى بيته بالروضة[١] ، غير أنه فضّل البقاء فى عزلته ، ولم يقبل أن يعود إلى الحياة العامة ، إذ عرض عليه الغورى وظيفة المشيخة بمدرسته ومدفنه بالقبة الزرقاء فرفض[٢] ، وما زال على انزوائه حتى مات سنة ١٥٠٥ م . وللسيوطى قبر بأسيوط يزار ، ولكنه مزوّر ، إذ المعروف أنه دفن بحوش الأمير قوصون ، خارج باب القرافة بالقاهرة .

أما عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فهو سليل أسرة مملوكية معروفة بالقاهرة منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل ، وأبوه الأمير المحدّث خليل بن شاهين الذى تقدم التعريف به ضمن معاصرى المقريزى من المؤرخين البارزين ، وأمه الأميرة أصيل أخت امرأة السلطان برسباى . ومولد عبد الباسط سنة ١٤٤٠ م ، بملطية بأطراف آسيا الصغرى ، حيث كان أبوه

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ج ٢ ، ص ٣٩١ .
(٢) الشعرانى : ذيل الطبقات الكبرى ، ص ٢١ .

متولياً نيابتها من قبل السلطان جقمق ، وقضى طفولته وشبابه متنقلاً بين البلاد التى اتفق لأبيه الإقامة فيها موظفاً مرضياً عنه ، أو طرخاناً منسياً أو مغضوباً عليه ، مثل حلب والخليل والقدس ودمشق وبغداد والقاهرة ومكة وطرابلس ، فتلقى علوم عصره على شيوخ مختلفين ، ومنهم أبوه الذى أقرأه الكثير من الكتب فى شتى العلوم ، كما علمه اللغة التركية أيضاً .

وشغف عبدالباسط كأبيه بالتحصيل الواسع ، فذهب مثله إلى بلاد كثيرة من المغرب لم تعينها المراجع ، وتلقى هناك دروساً فى النحو والكلام والطب حتى أتقنها . ثم استقرّ أخيراً بالقاهرة ، بعد وفاة أبيه خليل سنة ١٤٦٨ م ، فنزل بالخانقاه الشيخونية وتصوّف ، وتعرّف إلى السيوطى متولى مشيختها ، وإلى يونس الرومى المنطيق نزيلها ، وسمع كذلك على غيرهما من علماء القاهرة ، واعتبره السخاوى من تلاميذه فى التاريخ .

واشتغل عبد الباسط بعد ذلك بالتأليف فى مختلف العلوم والفنون ، ونظم ونثر ؛ غير أن المراجع لا تنبئ بشىء يدلّ على غير ذلك من عمل رسمى وُظّف عليه فى الدولة المملوكية . ومن مؤلفاته المعروفة فى التاريخ كتاب نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين ، وكتاب نيل الأمل ، وهو تكملة لتاريخ الذهبى ، وكتاب الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم ، وهو ذيل لتاريخ أبى المحاسن المشهور ، وكتاب تاريخ الأنبياء الأكابر

وبيان أولى العزم منهم . وله عدا ذلك كتاب الوصلة فى مسألة القبلة ، وكتاب الحكمة والسر فى كون الوضوء ، وكتاب القول المأنوس ، وكتاب شرح القانونشة فى الطب ، وكتاب عمدة الطالبين ورغبة الراغبين فى الفقه . وهذه المؤلفات كلها لا تزال فى ظلمات المخطوطات ، بمختلف مكتبات الشرق والغرب ، ما عدا الكتاب الأخير منها فإنه مطبوع طبعاً سقيماً .

ولعبد الباسط فوق هذا نظم مبعثر فى كتب معاصريه ، ولا سيما ابن إياس الذى نعته بلفظ "شيخنا" فى تاريخه أكثر من مرة ، ولابد أن مؤلفات عبد الباسط نفسها تحوى منه كثيراً . ومن ذلك النظم أبيات فى مناسبات شتى : مثل وفاء النيل بعد توقف طويل سنة ١٤٩٣ م ، ومرثية فى وفاة السيوطى سنة ١٥٠٥ م ، وفى هذين المثلين وغيرهما دليل على أن عبد الباسط عاش كابن إياس — وأبى المحاسن كذلك — بين رجال الأدب المتقلبين فى هامش البلاط السلطانى ومجتمعات الخاصة فى دولة المماليك . والواقع أن عبد الباسط مشابه لابن إياس فى كثير من الوجوه ، فكلاهما ابن أمير مملوكى ومن أولاد الناس على قول مصطلح العصر ، وكلاهما مؤرخ وشاعر . على أن عبد الباسط امتاز عن صنوه المؤرخ بأنه ألف فى غير التاريخ من علوم زمنه ، كما امتاز على سائر أصنائه ومعاصريه من أهل القلم بأن ما لدينا من نماذج نظمه خلو من التهانى والمديح ، بل يدل على أنه عاش متعزلا مترفعاً ،

وجاء ما كتبه فيه كلٌّ من السخاوى وابن إياس مصداقا لذلك تماما ، إذ قال أولهما بأنه : " إنسان ساكن أصيل منجمع عن الناس "(١) ، ووصفه ثانيهما وصفاً قلمياً دقيقاً تناول هيئته وبزته وأخلاقه ، حين قال إنه " كان صفته طويل القامة نحيف الجسد ، وكان يربى ذؤابة شعر فى رأسه على طريقة الصوفية ، وكان له أنف وافر جداً . . . وكان . . . . . . ضنيناً بنفسه ، وعنده يبس طباع مع شمم زايد ، وكان معظما عند الأتراك والأمراء ، وكان عارفا باللغة التركية ، وفيه جملة محاسن ، وكان بقية السلف وعمدة الخلف(٢) " .

وتوفى عبد الباسط سنة ١٥١٤ م ، بعد مرضه بالسل مرضاً ألزمه داره أكثر من سنة ؛ ويلاحظ أن وفاته حدثت والمائة العاشرة للهجرة كرّت من أعوامها عشرينا ، أى أنه كان من رجال القرن العاشر بقدر ما هو من أهل القرن التاسع ، ومثله وأكثر منه فى هذه الخضرمة حسن بن الطولونى ، وغيره من مؤرخى تلك السنين من تاريخ المماليك .

وُلد حسن بن حسين الطولونى سنة ١٤٣٢ م من أسرة يرجع أصلها إلى زمن الدولة الأيوبية ترجيحاً ، واشتغل كثير من أبناء تلك الأسرة بالهندسة والمعمار ، فكان منهم غالباً " معلم

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٢٧ .

(٢) ابن إياس . بدائع الزهور — طبعة استانبول — ج ٤ ص ٣٧٤ .

المعلمين[١] " ، وهو كبير المهندسين فى مصطلح الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر ، وعليه المعوّل فى العمائر السلطانية . واستقام الحظ المادى تماما لتلك الأسرة أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، حين تزوّج السلطان برقوق من أخت معلم المعلمين أحمد ابن الطولونى ، ثم من ابنته بعد طلاق عمتها . وأحمد هذا جدّ حسن بن الطولونى ، فلما جعله السلطان برقوق من أمراء المماليك برتبة أمير عشرة ، تزيّا بزىّ الأتراك ، وصار بذلك إنسانا ناجحا ، وظلّ على إمرته ووظيفته حتى وفاته سنة ١٣٩٨ م ، وهى السنة التى مات فيها برقوق .

نشأ حسن بن الطولونى على مهنة آبائه ، ودرج فى عزهم وجاههم[٢] ، مع ميل إلى الفقه والتاريخ والأدب والغناء والفروسية ، وهو ممن عدّهم السخاوى من تلاميذه فى التاريخ ، ويظهر أنه اشتغل بوظيفة معمارية صغيرة فى أول أمره . ثم وقعت الفتنة التى أدت إلى اعتلاء السلطان إينال عرش الدولة المملوكية سنة ١٤٥٣ م ، وعمل فيها حسن بن الطولونى بأن أشرف

---

(١) وردت هذه الوظيفة باسم معلم المعمارية فى أبى المحاسن (النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٤٢٧) ، وباسم معلم السلطان كذلك فى نفس المرجع (ج ٧ ، ص ٧٠٤) .

(٢) ليس فى المراجع التى اعتمد عليها كاتب هذه السطور ما يدل على شىء ألبتة بصدد حسين أبى حسن بن الطولونى صاحب الترجمة هنا ، وربما كان كذلك من رجال المعمار .

على حصار قلعة الجبل حتى سلمت ، فجازاه إينال بأن عينه على وظيفتى معلم المعلمين وإمارة المحمل . وشغل المعلم حسن الوظيفة الأولى من هاتين الوظيفتين سبعة عشر عاما ، تخللتها عهود السلاطين إينال وابنه أحمد وخشقدم ويلباى وتمربغا وقايتباى حتى سنة ١٤٦٩ م ، فعزل عنها سنة ذاك لسبب لم تذكره المراجع . ثم أعاده السلطان قايتباى إلى تلك الوظيفة بسفارة الأمير يشبك بن مهدى الدوادار ، فقام على عمائر السلطان خير قيام ، ومنها جامع الروضة المعروف بالمقسى على شاطئ النيل ، وهو الجامع الذى تم بناؤه سنة ١٤٩٠ م ، وأفتى بسببه السيوطى نكاية فى قايتباى بأن الإجماع منعقد على منع البناء على شطوط الأنهار الجارية .

وظلّ ابن الطولونى متمتعا برضى السلطان قايتباى ، وحظى عنده حتى أصبح وسيلة الناس لديه ، وسكن الروضة حيث الجامع السلطانى ، وأقام به الوقدات الحافلة ليلة الرابع عشر من كلّ شهر ، وأحضر لذلك قراء القاهرة ومؤذنيها ووعاظها ، ليشبع بهم حبّه فى أنغام القراءة والأذان والوعظ . وحجّ ابن الطولونى سنة ١٤٩٢ م موسمياً ، ورافقه السخاوى فى ركب ذاك العام ، فرأى من خير معلم المعلمين وإحسانه وحسن هيئته ما لم يجد له نظيراً بين حاجّ تلك السنة . ثم توفى السلطان قايتباى سنة ١٤٩٥ م ، فظلّ ابن الطولونى على وظيفته ، بل ولاّه السلطان محمد بن قايتباى نيابة

القلعة كذلك ، فوجده خادماً مخلصاً لقيامه بتحصين القلعة تحصيناً عظيماً أثناء فتنة الأمير قانصوه خمسمائة .

ولابن الطولونى فى التاريخ كتاب النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية ، وهو مختصر يبدأ بتاريخ ظهور الإسلام ، وينتهى بحوادث السلطان طومان باى آخر سلاطين المماليك بمصر ، والراجح أن له كتاباً ثانيا فى التاريخ على صورة المذكرات أو اليوميات ، غير أنه لا يوجد ما يدلّ عليه حتى العصر الحاضر سوى قول ابن إياس فى ترجمة ابن الطولونى بأنه " أنشأ تاريخاً لضبط الوقائع "[1] ، وأكبر الظن أنه مدفون فى مجموعة من المجموعات الخطية التى تملأ مكتبات العالم ؛ ولابن الطولونى عدا ذلك شرح مقدمة أبى الليث والأجرومية .

وعاش ابن الطولونى حتى سنة ١٥١٧ م ، أى أنه أدرك الفتح العثمانى لمصر والشام ؛ غير أنه عمى قبل ذلك بمدة طويلة ، وعزل عن وظيفته المعمارية ، واستقرّ فيها بعده ابنه شهاب الدين أحمد : ثم ذهب أحمد هذا مع فئات المعلمين (المهندسين) والصناع الذين حملهم السلطان سليم الأول العثمانى من القاهرة إلى إسطنبول ، ليقوموا له هناك بمثل ما رآه بعاصمة المماليك من المبانى والعمائر ، ثم رجع مع الراجعين من المصريين حنيناً إلى القاهرة بإذن السلطان العثمانى .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة بولاق — ج ٣ ، ص ١٠٧ .

ولابن إياس ثبت[1] يستغرق أربع صفحات كاملة من تاريخه الكبير ، فيه أسماء أولئك المعلمين والمهندسين الذين ذهبوا إلى استنبول ثم رجعوا عنها إلى القاهرة بعد قليل ، وفيه أسماء غيرهم من الشخصيات الكبرى والصغرى ، وأولهم الخليفة المتوكل العباسي . وليت ابن إياس ذكر من ضمن أولئك وهؤلاء أحمد ابن زنبل المحلى الرمال ، رابع معاصريه من المؤرخين في مصر ، أو أورد بشأنه خبراً واحداً ، فإن المراجع المعروفة لا تكاد تنبئ بشيء عنه سوى أنه كان موظفاً بديوان الجيش العثماني في وقت ما ، وأنه رافق جيش السلطان سليم الأول أثناء الحروب التي أنهت دولة المماليك بمصر والشام ، وأنه حضر جنازة طومان باي آخر سلاطين المماليك لتوزيع الصدقات على روحه بأمر السلطان العثماني .

ولابن زنبل كتاب تاريخ أخذ مصر من الجراكسة ، وهو سجل واف لحوادث الفتح العثماني ، من يوم خروج السلطان قانصوه الغوري من القاهرة لملاقاة العثمانيين بشمال الشام ، إلى يوم رجوع السلطان سليم الأول مظفراً إلى إسطنبول . ولهذا الكتاب مكانة كبيرة منذ تأليفه ، ومنه كُتبت نسخة — أو نسخ — شعبية ما برحت تسلية المقاهي بالقاهرة منذ القرن السادس عشر الميلادي ؛ وترجمه السهيلي إلى التركية في القرن

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة إسطنبول — ج ٥ ، ص ٢٢٤ — ٢٢٨ .

السابع عشر، ضمن كتاب له اسمه الدرة اليتيمة فى تاريخ مصر القديمة؛ واعتمد عليه مارسيل (Marcel)، أحد المستشرقين بالحملة الفرنسية على مصر، فى كتابه الذى ألفه فى تاريخ مصر الإسلامية، ولا يزال مرجعاً من الدرجة الأولى حتى الآن. وتوجد من هذا الكتاب نسخ عديدة متفاوتة الحجم والقيمة بمختلف المكتبات العامة والخاصة، ومنها نسخة شعبية مطبوعة طبعاً رديئاً، وربما عُنى به المعنيون بالتاريخ المصرى قريباً، لتكون منه نسخة منشورة نشراً نهائياً مقارناً، يطمئن إليها المؤرخون اطمئناناً علمياً.

ولابن زنبل عدا ذلك من المؤلفات كتاب فى التاريخ باللغة التركية، وهو يشتمل على حكام مصر العثمانيين فى زمنه، وكتاب تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب، وهو فى الجغرافية، وكتاب المقالات فى حل المشكلات، وهو فى علم الخط والرمل والتنجيم، وكلاهما مخطوط مهمل إهمالا تاما. والمعروف كذلك من أخبار ابن زنبل أنه بقى حياً يرزق من وظيفة بديوان الجيش العثمانى سنة ١٥٤٤ م، وأنه أقام وقت ذاك ببلدة أبى قير الحالية قرب الإسكندرية، وأنه توفى بعد سنة ١٥٥٢ م.

وإذا كان ما لدينا من أخبار ابن زنبل الرمال لا يكفى لكتابة ترجمة متصلة الحقائق شافية، فإن المراجع تضن بأخبار محمد بن طولون الدمشقى آخر معاصرى ابن إياس من المؤرخين،

فضلاً عن ترجمة ذاتية[١] كتبها هـذا المؤرخ لنفسه تقليداً للسابقين من المعاصرين والمتقدمين كالسيوطى ، وهى فى أربع وخمسين صفحة من القطع الصغير ، لا يخرج القارئ منها بشىء كثير ، خلاصته أن ابن طولون وُلِد سنة ١٤٧٥ م بصالحية دمشق ، وأن أمه أزدان الرومية توفيت وهو فى سن الطفولة الأولى . وتعلم ابن طولون على شيوخ دمشق ، ومنهم عمه القاضى جمال الدين يوسف الحنفى مفتى دار العدل بها ، والمؤرخ الدمشقى محيى الدين النعيمى ، والمحدث جمال الدين ابن المبرد ؛ ثم رحل ابن طولون فى طلب العلم إلى مكة سنة ١٥١٤ م هـ ، فسمع بها على الحافظ عز الدين بن فهد ، وأجازه السيوطى إجازة بالمكاتبة من القاهرة .

وقرر ابن طولون فى ترجمته الذاتية أن عدّة شيوخه بلغت خمسمائة ، وأن العلوم التى اشتغل بتحصيلها تزيد على اثنين وسبعين علماً ، ومنها الحديث والكلام والأصول ، والنحو والصرف والمنطق ، والطب والهيئة والهندسة ، والمعانى والبديع والحساب ، والفرائض والعروض والفلك ، والميقات واللغة والتاريخ ، والفقه والتصوف والتفسير . وأجازه مشايخه فى بعض هذه العلوم

---

(١) اسم هـذه الترجمة الذاتية الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون ، وهى مطبوعة بدار مكتبة القدسى والبدير بدمشق ، سنة ١٣٤٨ هـ .

الإجازة والإجازتين والثلاث ؛ ولذا جاء ابن الطولونى كالسيوطى تماما من حيث مشايخه وعلومه وبراءاته العلمية وسماعاته ، بل أصاب المرحوم تيمور باشا حينما وصفه بأنه سيوطى الشام .

والواقع أن الشبه بين الرجلين يتمدّى إلى مؤلفاتهما وأنواعها وقيمتها كذلك ، بل تزيد مؤلفات ابن طولون الدمشقى كثيراً عن مؤلفات صاحبه المصرى ، وهى واردة فى ترجمته الذاتية — وفى غيرها من المراجع — فى عدة صفحات بترتيب أبجدى لكثرتها . ومن هذه فى التاريخ كتاب غير معروف العنوان على التحقيق ، ولا يوجد منه حتى الآن سوى قطعة صغيرة طبعت[١] حديثاً ، ولعله كتاب عجب الدهر فى تذييل من ملك مصر ، أو كتاب نزهة الناظر فى معرفة الأواخر ، أو كتاب مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان . وكيفما كان الأمر ، فهذه القطعة من ذلك الكتاب المجهول هى التى أهلت ابن طولون لأن يكون فى عداد المؤرخين الذين يُرجع إليهم فى كتابة التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، لانفرادها بحقائق تاريخية هامة فى الفتح العثمانى وأسبابه وحوادثه ، واشتمالها على ما رآه مؤلفها من حوادث ذلك الفتح بدمشق ، مما لم يَرَه ابن إياس وهو بالقاهرة .

---

(١) عثر المستشرق رتشارد هارتمان (Richard Hartmann) على هذه القطعة بمكتبة جامعة توبنجن (Tübingen) ، ونشرها سنة ١٩٢٦ تحت اسم (Das Tübinger Fragment der Chronik des Ibn Tūlūn.).

ولابن طولون فى التاريخ كذلك كتاب العقود اللؤلؤية فى الدولة الطولونية ، وكتاب حور العيون فى تاريخ ابن طولون ، وهو تلخيص مع زيادات لسيرة أحمد بن طولون للبلوى [١] المؤرخ المتوفى حول منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . وعثر ابن طولون على تلك السيرة فى دكان ورّاق ، فاشتراها وأهداها لخزانة المدرسة العمرية بصالحية دمشق ، وكتب عليها بخطه أنه ابتاعها بتسعة قروش ، وكل ذلك تقدير منه لمؤسس الدولة الطولونية الذى اعتبره جدّه الأعلى. ولابن طولون كذلك فى التاريخ كتاب الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام ، وكتاب إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى ، كما أن له فى التراجم كتاب سلك الجمان فيما وقع لى من تراجم ملوك بنى عثمان ، وكتاب النطق المنبى فى ترجمة الشيخ المحيوى ابن العربى . وكتاب الاختيارات المرضية فى أخبار التقى ابن تيمية ، وكتاب التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والخلان ، وهو ذيل على تراجم البرهان البقاعى المعروف باسم عنوان الزمان ، وغير ذلك كثير فى مختلف العلوم والمواضيع والصناعات .

---

(١) نشر الأستاذ محمد كرد على بك هـذه السيرة الطولونية حديثا من نسخة وحيدة وجدها بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، وسدّ بنشره وتحقيقه هـذا الكتاب ثغرة واسعة من ثغرات التاريخ المصرى أوائل العصور الوسطى .

واشتغل ابن طولون فوق ذلك بوظائف عديدة من تدريس وإقراء وإمامة وخطابة ، ومشارفة وفقاهة ومشيخة ، بمختلف معاهد دمشق وجوامعها وزواياها وخوانقها ، فكانت أوقاته معمورة تماما ؛ وظلّ على كثير من تلك الوظائف برغم ما جرى على دمشق من تغير الدولة بعد الفتح العثمانى ، وتوفى سنة ١٥٤٥ م ، ولم يعقب أحداً .

الفصل الرابع

خاتمة ونقد مقارن

المقصود فى السطور التالية تعقيب نقدىّ على ما جاء من أخبار المؤرخين والكتاب الذين تقدمت تراجمهم فى الفصول السابقة، على أن يتبعه تحليل لمؤلفاتهم تحليلا مقارنا، من حيث أنها نتاج شامل لمرحلة من التاريخ المصرى مدتها قرن ونيف من السنين.

ومما يوجب الالتفات أولاً فى حياة أولئك الرجال أنهم كانوا فى الغالب ممن شغلوا — أو طلبوا — وظائف كبيرة فى الدولة المملوكية، وأنهم جمعوا إلى ذلك بين فن الكتابة فى التاريخ والدراسات والتآليف المتنوعة. فالمقريزى مثلا تولى التوقيع بديوان الإنشاء، ثم وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى فى وقت معين، وذلك فضلا عن تعيينه سنوات أخرى مدرسا للحديث (أي أستاذاً ذا كرسى فى المصطلح الجامعى الآن)، بمدارس القاهرة ودمشق، وقيامه ناظراً على أوقاف واسعة بعاصمة الشام؛ ومع هذا فشهرته مبنية على ما كتبه فى التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى، والخطط أيضاً. وكذلك كان ابن حجر قاضياً للقضاة الشافعية بالقاهرة، كما كان العينى قاضياً للقضاة الحنفية بها، مع

تولى ثانيهما الحسبة ونظر الأحباس جميعاً فى وقت واحد ؛ ونبغ كل منهما فى وظائف تدريس الحديث بالقاهرة ، وخلّف فى الحديث وعلومه مؤلفات ضخمة ، وهذا عدا مؤلفاتهما التاريخية الكبرى.

ويقال مثل ذلك فى ابن عرب شاه ، إذ اشتغل بديوان الإنشاء بمعظم الممالك الإسلامية فى الشرق الأدنى ، بل صار كاتب السرّ لدى السلطان محمد الأول العثمانى ، وغدت بيده مراسلات الدولة العثمانية وشئونها مع جيرانها من ترك وعرب وفرس ومغول على الأقل ، لمعرفته لغات تلك البلاد معرفة تامة . وتقلد خليل بن شاهين — وهو عديل السلطان برسباى — وظائف عظيمة فى الدولة المملوكية بمصر والشام وأطراف آسيا الصغرى ، فتعيّن ناظراً ثم حاجباً بالإسكندرية ، وتولى دار الضرب فالوزارة بالقاهرة ، ثم تقلب فى عدة نيابات بمدن الشام وملطية بأطراف الدولة المملوكية ، وذلك بالإضافة إلى مؤلفاته فى الفقه والتفسير والتعبير والتاريخ والإنشاء . أما الخالدى ، مؤلف كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادى لصناعة الإنشا ، فإنه قضى عدة سنوات موظفاً مسئولاً بديوان الإنشاء بالقاهرة ، كما يدلّ عليه كتابه . ومع أن أبا المحاسن لم يباشر وظيفة دائمة يوماً من أيام حياته الطويلة ، فالمعروف أنه كان من فرقة أولاد الناس ، التى جرت العادة فى الدولة المملوكية أن يُعطى للواحد منهم إقطاع متناسب مع رتبة أمير خمسة فى النظام الحربى المملوكى رعاية لسلفه ، وأن تسند إليه وظيفه مدنية زمن السلم ،

على أن يقوم بواجب الأمير وقت الحرب ؛ ثم تولى أبو المحاسن وظيفة باش المحمل المصرى سنة ١٤٤٥ م ، ومؤلفاته الكبيرة فى التاريخ والتراجم معروفة . وصار ابن الصيرفى خطيباً لجامع الظاهر برقوق ، ونائباً للحكم (قاضياً) عند قاضى القضاة الحنفية ، كما اشتغل بالتجارة والتأليف فى التاريخ والسيرة النبوية . أما السخاوى ، فكأنما قدّر له أن يظلّ طول حياته يسعى إلى وظيفة من وظائف تدريس الحديث بالقاهرة ، ويبوء من سعيه المتّصل ببقائه طالباً مزمناً حتى آخر أيامه ، فعانى التأليف فى الحديث والتاريخ والتراجم ، وكتب لنفسه ترجمة ذاتية فى أكثر من ثلاثين صفحة من كتابه الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، وربما كان عدم توفيقه لوظيفة سبباً من أسباب المرارة الطاغية على كثير من تراجمه فى معجمه الكبير . وأما ابن إياس فليس من المعروف ما غدا عليه من وظيفة سوى أنه ظلّ كذلك فى فرقة أولاد الناس ، وبيده إقطاع له عبرة وافرة ، كأبى المحاسن من قبل وعبد الباسط وابن الطولونى من بعد ، وما عدا أنّ نظمه يدلّ على أنه عاش حول البلاط السلطانى ، ولعله تعيّن فيه على وظيفة مؤقتة لم يشأ أن يذكرها فى كتابه لضآلتها فى نظره . وأما معاصره السيوطى فإنه عاش جمّاعا للوظائف ، من تداريس ومشيخات حبّا فى الصيت والمال ؛ ويظهر أن ابن طولون الدمشقى شابه السيوطى فى هذه الناحية كذلك ، فضلا عن مشابهته له فى الاعتداد بالنفس وادعاء التبحر

فى جميع العلوم وكثرة التآليف . وأما ابن الطولونى ، فإنه تولّى وظيفة "معلم المعلمين" فى البلاط المملوكى مدّة طويلة ، كما كان ابن زنبل من موظفى ديوان الجيش العثمانى ، وذلك بالإضافة إلى اشتغاله بالرمل والنجوم والأوفاق ، وله فى ذلك كتاب تقدّمت الإشارة إليه ، وهذا عدا ما ألّف فى الجغرافية والتاريخ .

وظاهرة ثانية مشتركة بين أولئك المؤرخين والكتاب فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وهى ممارستهم جميعاً نَظْم الشعر فى مناسبات شتى ؛ ويظهر أن هذا الفن كان من مستلزمات المتنوّرين فى ذلك العصر . على أن السيوطى بزّ المعاصرين والمتقدمين جميعاً بممارسة الأدب النثرى كذلك ، إذ كتب سلسلة من المقامات فى نثر مسجوع . والواقع أنه لم يشذّ عن هذه القاعدة — وهى ممارسة النظم — أحد من أولئك المؤرخين ، غير أن المعروف من أشعار بعضهم لا يكاد يعدو أصابع اليد مرة أو مرتين عدداً ، وربما أبطنت كتبهم المخطوطة كثيراً مما لهم فى هذا الباب الذى وجبت العناية به ، لإبراز تاريخ مفهوم للأدب العربى المصرى فى العصور الوسطى ، وللاستعانة به فى معرفة ما غمض من أخلاق الكتاب وعلاقاتهم الشخصية بعضهم ببعض .

ذلك أنه يبدو من إشارات معظم أولئك المؤرخين إلى سابقيهم أو معاصريهم أنهم كانوا شديدى الخصومة ، والتحاسد والمداخنة — وتلك هى الظاهرة الثالثة الشائعة بينهم — ، يستشفها القارئ

لكتبهم فى غير عناء؛ وسببها فى الغالب ما تولد بينهم من منافسة وتعصب لمشايخهم، سواء أكانوا مؤرخين أم محدثين أو موظفين فى الدولة المملوكية. من ذلك أن المقريزى لم يغفر للعينى أنه خلفه فى وظيفة الحسبة، وهى الوظيفة الوحيدة التى يظهر أن المقريزى استراح لها من دون الوظائف التى تولاها، ولذا لم يألُ فرصة دون أن يتناول العينى بلاذع الإشارة فى كتبه. ولم يتحرج العينى — بإزاء ذلك على الأقل — أن يصف المقريزى فى عبارة مماثلة ساخرة، بأنه كان رجلا "مشتغلا بكتابة التواريخ وبضرب الرمل، تولى الحسبة بالقاهرة .... ثم عزل[1] عسطره". ولم يخلُ من ذلك التحاسد والشعور بالمنافسة أمثال ابن حجر المعروف بالاتزان والوقار، فإنه كره العينى كرهاً تاماً، ولم يستطع أن يسكت عن سرقاته فيما ألف فى الحديث والتاريخ، فرماه بما سمح به قلمه من التجريح. وكذلك لم يفت أبا المحاسن أن يتعقب أخطاء أستاذه المقريزى كلما سنحت له الفرصة، وذلك مع العلم بأن كثيراً مما جاء فى كتب أبى المحاسن منقول بحذافيره من مؤلفات المقريزى. أما السخاوى فلم يعجبه أحد من سابقيه أو معاصريه، ما خلا أستاذه ابن حجر، ولم يشأ أن يترك مناسبة — أو غير مناسبة — إلا اغتنمها للحط من كلٍّ من المقريزى والعينى وغيرهما. ومن ذلك قوله فى أبى المحاسن: "وبالجملة فقد كان

---

(١) السخاوى: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٢٤، نقلا عن العينى.

[أبو المحاسن] حسن العشرة ، تام العقل — إلا فى دعواه فهو حق[1] " ، ورميه ابن الصيرفى بأنه " كان يكتب التاريخ مجازفة ، لا عن قائل ، ولا عن[2] راو " ، ووصفه السيوطى بأنه " تزبب قبل أن يتحصرم . . . . لم أزل أعرفه بالهوس ومزيد الترفع حتى على أمه[3] " .

ولم يسلم السخاوى طبعاً من معاصريه ، إذ نمته السيوطى بأنه " المؤرخ الجارح . . . . أكبّ على التاريخ فأفنى فيه عمره ، وأغرق فيه عمله ، وسلق فيه أعراض الناس ، وملأه بمساوى الخلق . . . وزعم أنه قام فى ذلك بواجب ، وهو الجرح والتعديل[4] " ؛ وأيده فى ذلك الحكم ابن إياس فى عبارة متزنة معتدلة فى التعريف بالسخاوى . والواقع أن ابن إياس كان أقلّ مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى فى مصر حسداً وغيرة من أبناء صناعته ، وهو كذلك أعدلهم لفظاً عند الحكم على كثير من الناس ، وربما كان ابن إياس ذلك كله لأنه لم يزاحم أحداً من معاصريه من المؤرخين فى وظائفهم وأطماعهم ، وأنه عاش حفاظاً للجمائل . مثال ذلك قصده فى النيل من السيوطى بخير أو شرّ ، لأنه على الرغم من عدم احترامه له ، لم ينس له حقّ تعليمه إياه ، فلم يتعرّض له بأكثر من النقد الخفيف .

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ٣٠٥ .
(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢١٨ .
(٣) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٧ .
(٤) السيوطى : نظم العقيان — طبعة حتى — ، ص ١٥٢ .

وثمّ ظاهرة رابعة ، يراها القارئ شائعة بين مؤلفات أولئك المؤرخين كذلك ، إنهم يقولون فى مقدّمات كتبهم إنما يؤلفون لأنفسهم خاصة ، أو نزولا على رغبة صديق من الأصـدقاء ، لا يريدون من ذلك جزاء أو نفعا أو صيتا أو حبـا فى استجلاب الرضا عند سلطان أو أمير . والغالب أن هذا التصنّـع كان أيضا من لزوميات العلماء فى ذلك العصر وغيره من العصور ، ولا سيما إذا كان المؤلف ممن لم يسعدهم الحظ فى البلاط السلطانى ، أو عند أمير من الأمراء . والدليل على ذلك أن الذين نالوا منهم شيئا من التشجيع والرضا عند بعض أولى الأمر فى الدولة لم يكتبوا أمثال تلك العبارة المصطنعة فى افتتاحيات مؤلفاتهم ، بل ذكروا اسم السلطان أو الأمير صاحب الفضل عليهم . والأمثلة على النوعين كثيرة : فالمقريزى مثلا يفتتح كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ببيتين من الشعر ملخصهما أنه جمع ذلك الـكتاب لنفسه[١]، وأبو المحاسن يقول فى أول كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ما نصه : " ولم أقل كمقالة الغير إنى مستدعى إلى ذلك من أمير أو سلطان ، ولا مطـالب به من الأصدقاء والإخوان ، بل ألفته لنفسى ، وأينعته بباسقات غرسى ، ليـكون لى فى الوحدة

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ، ج ١ ، ص ٣ .

جليسا ، وبين الجلساء مسامراً وأنيسا[١] ". غير أن أبا المحاسن ناقض نفسه فى موضع آخر من كتابه هذا حين قال إنه ألفه من أجل صديقه السلطان المرجوّ محمد بن جقمق ، ليجعل منه ما جعل العينى للسلطان برسباى من كتاب عقد الجمان بأخبار الزمان ، مع العلم بأن ابن جقمق لم يطلب إليه هذا الطلب . أما السخاوى ، فيذكر صراحة بأنه ألف كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك إجابة لطلب الأمير الكبير يشبك بن مهدى الدوادار ، وفى ذلك يقول : " ثم أخذت فى ضبط ما تيسّر لى ، وذلك حين أمرنى مَن إجابته عند العظماء كالواجب ، وإشارته بمجرد الإيماء للوقاية كالحاجب ، وجنابه يُغبط من حلّ بجانبه ، وبابه محطّ رحال الساعى فى مآربه ، فالعلماء بمجلسه حافّون ، والفهماء فى محل أنسه عاكفون[٢] . . . " ، وأمثال هذه العبارات كثير فى كتب غير السخاوى من المؤرخين .

وهناك ظاهرة خامسة بين أولئك المؤرخين ، وهى الأخيرة والأكثر أهمية مما سبق فى هذا المقام من الظواهر المشتركة بينهم ، لملاقتها بالتاريخ ومفارقته فى مصر الإسلامية فى العصور الوسطى ، وتلك هى أن الغالبية العظمى من كتب مؤرخى القرن

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — طبعة دار الكتب المصرية — ، ج ١ ، ص ٢ .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٤ .

الخامس عشر الميلادى فى مصر ليست سوى ذيول وتكملات لكتب سبقتها زمنياً . على أن المؤرخين فى ذلك القرن ليسوا فى الواقع سوى مقلدين لسلفهم فى التأليف التاريخى بالشرق الإسلامى كلّه ، وأكبر الظن أن المؤرخين فى العربية على الإطلاق[١] أرادوا بتلك الطريقة أن يستمدّوا لأنفسهم من شهرة السابقين بربط مؤلفاتهم إلى كتب سلّم الناس بأهميتها قبلا ، أو أن يفرضوا على الناس أنهم الوارثون لما فى الشهرة والزعامة من إجلال واحترام ، أو أن يدّعوا أنهم استطاعوا تهذيب أنماط السالفين فى الكتابة والترتيب . فالمقريزى (وهو الوحيد الذى لا ينطبق عليه شىء من هذا التعليل كله) ذيل على نفسه فى تأليفه كتاب السلوك ، إذ كتبه ليكمل به سلسلة مؤلفاته الخالدة فى تاريخ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى منذ الفتح العربى إلى زمنه[٢] . أما أبو المحاسن فإنه كتب حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور

---

(١) يوجد كثير من الأدلة على إطلاق هذه الظاهرة على جميع المؤرخين السابقين فى العربية قبل القرن الخامس عشر الميلادى ، ومنها أن تاريخ أبى الفدا ذيل على كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل ، وأن تاريخ البرزالى ذيل على كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة ، وأن كتاب الإعلام بتاريخ أهل الإسلام لابن قاضى شهبة ذيل على كتاب العبر فى خبر مَن عَبر للذهبي ، وغير ذلك كثير فيما يبدو .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ، ج ١ ، ص ٩ .

استمراراً لكتاب السلوك ، وإحياء لسنة صاحبه وأستاذه مع التحسين فيها ، ليكون له من بعده زعامة المؤرخين بحق في القرن الخامس عشر الميلادى [١] . ولهذا السبب نفسه كتب السخاوى كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، وهو تكملة ثانية لكتاب المقريزى كما يتضح من العنوان ، كما أنه ألف كتاب وجيز الكلام فى ذيل تاريخ دول الإسلام تتمة لكتاب الذهبى المؤرخ ، وكتاب الذيل المتناهى تكملة لكتاب معروف لابن حجر فى قضاة مصر ، وكتاب الذيل على طبقات القراء تكملة لكتاب ابن الجزرى .

ومن أمثلة ذلك أيضاً كتاب المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لأبى المحاسن ، فهو ذيل على المؤلف المعروف لخليل بن أيبك الصفدى ، وكتاب إنباء الغمر فى أبناء العمر لابن حجر ، وهو فى الواقع ذيل لكتاب البداية والنهاية لابن كثير ، وكتاب تاريخ العمر للسيوطى ، وهو تكملة للكتاب المتقدم لابن حجر .

غير أنه توجد عدا هذه الظواهر المشتركة بين أولئك المؤرخين ظاهرة واحدة غير مشتركة بينهم ، أو — بعبارة أخرى — ظاهرة غير متساوية الانطباق على كل منهم ، وتلك هى اتجاه بعضهم ، كالمقريزى والسيوطى ، إلى تأليف الكتب الصغيرة فى موضوعات

---

(١) أبو المحاسن : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور — طبعة كاليفورنيا — ، ج ١ ، صفحة ب .

معينة ، فضلا عن جانب انشغالهم بالكتب الكبيرة والحوليات ، واتجاه بعضهم الآخر ، كأبى المحاسن والسخاوى ، إلى اختصار المؤلفات المنسوبة لأسلافهم أو لأنفسهم . على أن إنتاج البعض الأول فى ذلك الصنف من التأليف هو القمين بالانتباه هنا ، فمؤلفات المقريزى الصغيرة مثلا تتصف بصفات خارقة ، إذ بينما تموج كتبه الكبيرة بأخبار الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء ، وتؤود بحوادث العزل والولاية ، وتنتفش بالتراجم والوفيات والحروب والتجاريد ، حتى تكاد شخصية المؤلف لا توجد أو تُرى إلا بمنظار ، إذا بهذه الكتب الصغيرة تلقى كثيراً من الضوء على شىء من هوية المؤلف ، وتوضّح الطريق لفهم الحال الفكرية فى عصره . ذلك أن المقريزى يعرض فى أمثال هذه الكتب لمسائل قلّ أن يتعرض لها فى حولياته ، ويتحلل من قيود تسجيل الأخبار ، ويجرؤ على الإدلاء بآرائه الخاصة ، بل يحاول أحياناً أن يعلل الحوادث تعليلا عقلياً ، ويناقش بعض العيوب نقاشاً حرّاً[1] . أما مؤلفات السيوطى الصغيرة فقد تقدمت الإشارة إلى طابعها الصحفى القائم على الدعاية لنفس لوّامة للغير فى كثير من الأنانة والتعديل الزائف وحب الصيت ، على أن غثاثة تلك

(١) انظر المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة — نشر زيادة والشيال — صفحة هـ ، وكذلك المقريزى : نحل عبر النحل — نشر الشيال ، صفحة د — هـ .

المؤلفات لا تستطيع إلا أن تنمّ عن شخصية السيوطى ، وهى فى الواقع تلق كثيراً من الضوء على شىء من هويته ودخيلته[١] .

أما التعريف بمنهج الكتابة والتأليف عند مؤرخى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وتقدير مؤلفاتهم تقديراً مقارناً من حيث أنها منابع ومراجع أصلية للتاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، فمن الضرورى قبل الكلام فى هذا أو ذاك أن نذكر أولا أن لفظ " تاريخ " فى ذلك العصر ، وما سبقه أو لحقه من العصور كذلك إلى نهاية العصور الوسطى — وسواء فى ذلك مصر وبلاد الشرق والغرب جميعاً — وسع غير التاريخ من العلوم والفنون والمقاصد ، كالحوليات والمدوّنات اليومية ، والوَفَيات والتراجم ومعاجم الكتب . ويرجع هذا التجوّز الواسع فى مدلول لفظ " تاريخ " ومشموله فى اللغة العربية — واللغات الأوربية كذلك فى تلك الأزمنة — إلى عوامل لا محل هنا لمناقشتها أو استقصائها[٢] ، إذ المراد شرح طريقة التأليف والترتيب عند مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى وحده فى مصر شرحاً استقرائيا . ذلك أن كلاًّ منهم كان يفتتح كتابه ، بعد البسملة والحمدلة والصلوات الطيبات ،

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٥٨ — ٦٣ .

(٢) اقرأ فى هذا الموضوع ما كتبه الأستاذ عبد الحميد العبادى بك فى الفصل الثالث من كتاب علم التاريخ ، ص ٥١ — ٦٩ . (مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ م) .

بذكر بدء الخليقة ، ويُعقبه بقصص الأنبياء والمرسلين ، ثم يأخذ في شرح فضائل مصر وما امتازت به من الصفات على سائر البلدان ، ويستشهد بالآيات القرآنيـة والأحاديث النبوية تأييداً لذلك ، وينتقل من بعد هذا إلى تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامى ، فيكون مختصراً أولا ، ثم أقل اختصاراً ، وهكذا إلى أن يصير الكتاب سجلا يومياً لما يقع بمصر وولاياتها وجاراتها من الحوادث الكبرى والصغرى فى عصر المؤلف . وقد يتخلل هذا السجل شىء عن أسعار المحاصيل وأحوالها ، أو فيض النيل ومناسيبه ، أو هبوب ريح سوداء ترفع الأبقار فى الهواء ، أو تفصيلات جدل أدبى ، أو أدوار محنة فقهية ، أو تعديل فى نظم الحكم والجيش ، أو وصف لمسجد عمره سلطان أو أمير ، أو نص رسالة أرسلها ملك من ملوك البلاد المجاورة وجواب السلطان عليها ؛ وذلك فضـلا عن الوفيات والتراجم التى تطول أو تقصر بحسب مزاج الكاتب ومقياسه ، وعلى قدر القيمة السياسية أو الاجتماعية للمترجم له .

يتضح من هذا أن مؤرخى ذلك العصر لم يفرّقوا بين التاريخ والقصص والأدب والوفيات والتراجم ونظم الحكم ، وأنهم اتبعوا طريقة الاستطراد فى التأليف ، فلم يميزوا بين التاريخ البحت وبين الاقتصاد والاجتماع والتاريخ الدستورى ، مثلا . واتّبع المقريزى تلك الطريقة الجامعة بمقدار فى كتاب السلوك لمعرفة

دول الملوك ، غير أنه رتّبه على نظام مخالف لما وجده شائعاً بين مؤلفات مَنْ سبقه من المؤرخين فى مصر ، كالنويرى وابن الفرات . وتفصيل ذلك النظام أن المقريزى دوّن حوادث كل عام فى فصل مستقل ، تحت عنوان باسم ذلك العام بخط كبير ومداد غير مداد المتن ، وختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها فى شىء من الاختصار العامد ، ثم انتقل إلى العام التالى فجعله عنواناً جديداً ، وسجل حوادثه دون أن يؤلف من كتابته قصة متصلة ، ما عدا أنه افتتح السنة أحياناً بذكر الوظائف الكبرى ومَن عليها ، وهذا فى العادة إذا جاء بدء السنة موافقاً لقيام سلطان جديد ، لما فى ذلك طبعاً من تغيير وتبديل بين موظفى البلاط السلطانى . واعتاد المقريزى كذلك أن يكتب اسم السلطان الجديد بخط كبير ومداد مخالف ، غير أنه لم يجعل من ذلك وقفة يلخّص فيها أو يفلسف ، بل اكتفى بعبارات افتتاحية فى أصل السلطان وماضيه ، ثم انتقل إلى ذكر الحوادث والأخبار حسب ترتيبها الزمنى على قدر الإمكان .

وسار كلّ من العينى وابن حجر على هذا النظام فى كتبهما التاريخية ، ما عدا أن شغف ابن حجر بالتراجم حمله على أن يفيض فيها بأكثر مما دوّن فى حوادث سنة بأكلها . ولابن حجر فضل فى أنه كتب الوفيات على ترتيب أبجدى ، وحذا حذوه فى ذلك تلميذاه السخاوى وابن الصيرفى . وابن حجر كذلك أول من ابتدع فكرة الكتاب الشامل لوفيات قرن بتمامه ،

وهو أيضا صاحب فكرة التسمية لتلك الكتب على عنوان القرون ، وإليه يرجع قصب السبق فى العناية بتراجم الفاضلات المحدّثات من النساء ، وكتابه الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة دليل واضح على ذلك . واقتفى السخاوى أثره فى هذا كله ، وزاد عليه بأن جعل للنساء وحدهن جزءا مستقلاً من كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ؛ وتألفت من بعد ذلك الكتب المعروفة فى وفيات القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر الهجرى .

أما أبو المحاسن فإنه أخذ على أستاذه المقريزى أنه ملأ كتابه بالحوادث والماجريات ، وقصّر فى التراجم والوفيات ، ولذا ألف هو كتابه حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، معارضاً لذلك الترتيب ، فأطنب فى الحوادث وأوسع فى التراجم ، لتكثر الفائدة من الطرفين ، على قوله ؛ وهذا الكتاب هو الذى جعله أبو المحاسن ذيلا على كتاب السلوك للمقريزى . بل إن أبا المحاسن انتهج فى تاريخه الكبير ، وهو كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، منهجاً مخالفاً لطريقة المقريزى وترتيبه ، إذ جعل كل عهد من عهود الملوك والسلاطين فصلا قائما بذاته ، وذكر السنين وحوادثها تباعاً من غير أن يجعل لها عناوين مستقلة ، ما عدا أنه أشار إلى إهلالها على أنه حادثة من الحوادث ، حتى إذا توفى السلطان أتى على أخباره مرّة أخرى فى ترجمة متصلة ، وشرح أخلاقه وعوامل نجاحه أو فشله ،

ثم أعقب ذلك كلّه بترتيب سنوات العهد نفسه ترتيباً عددياً ، وذكر وفيات كلٍّ منها فى فصل واحد ، وربما أفض فى هذه أو تلك من الوفيات إفاضة ملحوظة لما لصاحبها من مقام ممتاز ، أو ذكر فى أثنائها من الحوادث ما لم يستطع ذكره أو أنسيه فى الجزء الخاص بعهود السلاطين .

وأما ابن إياس فاتبع طريقاً نصفة بين ترتيبىّ المقريزى وأبى المحاسن ، إذ قسم كتابه بدائع الزهور فى وقائع الدهور إلى عهود مستقلة ، كما فعل أبو المحاسن ، وذكر السنين بعناوين واضحة وبخط كبير ومداد مخالف ، كما فعل المقريزى ؛ ولكنه لم يجمل للوفيات ترتيباً زمنياً منفصلا مثل ترتيب أبى المحاسن ، ولم يكدسها عند أواخر السنين من حولياته مثل نظام المقريزى ، بل أوردها فى كثير من الإيجاز عند وقوعها حيثما اتفق من شهور السنة ، وهو فى ذلك متبع للطريقة التى سار عليها مؤلف مجهول الاسم ، له كتاب مخطوط ناقص وبغير عنوان بالمتحف البريطانى بلندن ، وموضوعه تاريخ دمشق .

وللبرهان على كلّ ما تقدم من ملاحظات يجب الرجوع إلى كتب أولئك المؤرخين نفسها ، أو إلى مقدّماتها على الأقل : فالمقريزى مثلا بيّن فى تصدير كتاب السلوك أنه ألفه ليكون تاريخ السلاطين فى مصر بعد الفاطميين " من الملوك الأكراد والأيوبية ، والسلاطين المماليك التركية والجركسية ، فى كتاب

يحصر أخبارهم الشائعة ، ويستقصى أعلامهم الذائعة ، ويحوى أكثر ماق أيامهم من الحوادث والماجريات ، غير ممتن فيه بالتراجم والوفيات ، لأنى أفردت لها تأليفاً بديع المثال ، بعيد المنال ، فألفت هذا الديوان ، وسلكت فيه التوسط بين الإكثار الملّ والاختصار المخلّ»[١] . وكذلك كتب أبو المحاسن فى خطبة كتاب النجوم الزاهرة ، حيث قال إنه رتّبه ليكون شاملا لعهود مَن ولى مصر منذ الفتح العربى من الولاة والخلفاء والملوك والسلاطين ، "واحداً بعد واحد ، لا أقدّم أحداً منهم على أحد باسم ولا كنية ولا لقب ، ثم أذكر أيضاً فى كل ترجمة ما أحدث صاحبها فى أيام ولايته من الأمور ، وما جدّده من القواعد والوظائف والولايات فى مدى الدهور ، ولا أقتصر على ذلك ، بل أستطرد إلى ذكر ما بنى فيها من المبانى الزاهرة ، كالميادن والجوامع ومقياس النيل وعمارة القاهرة ، أولاً فأولاً ، أذكره فى يوم مبناه وفى زمن سلطانه ، مستوعباً لهذا المعنى ضابطاً لشانه ، على أنى أذكر من توفى من الأعيان فى دولة كلّ خليفة وسلطان باقتصار ، بعد فراغ ترجمة المقصود من الملوك ، مع ذكر بعض الحوادث فى مدة ولاية المذكور فى أىّ ما قطر من الأقطار[٢]" . أما ابن إياس ، فليس

(١) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٩ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، ج ١ ، ص ٣ .

بالمطبوع من تاريخه خطبة مشابهة يمكن الاقتباس منها اقتباساً يدل على طريقته فى التأليف ؛ على أن القارئ لكتابه يجد ذلك واضحاً شائعاً فى جميع أجزائه ، وهو لا يخرج عما تقدمت الإشارة إليه إجمالا فى موضعه .

والحاصل أن طريقتى المقريزى وأبى المحاسن ، وكذلك الطريقة التى سار عليها ابن إياس ، ليست فى شىء من التاريخ بمعناه الحديث : فطريقة المقريزى ناقصة لقطع تتابع الحوادث فجأة عند نهاية السنين ، وطريقة أبى المحاسن مؤدية لشىء من الخلل والاضطراب ، بسبب مراوحته بين الإفاضة فيما هو بصدده من حادثة أو مسألة ، وبين تأجيل ذلك إلى صفحات الوفيات التى ذيل بها عهود السلاطين ، مما نتج عنه نقص أحياناً وتكرار أحياناً أخرى . ويقال مثل هذا وذلك بصدد طريقة ابن إياس ، لأنها فى الواقع مزيج من الطريقتين السابقتين .

ثم إنه يلاحظ أن المؤرخين على وجه التعميم قنعوا فى كتبهم هذه بذكر الحقائق مجردة عن أسبابها ، ودوّنوا الحوادث شهراً فشهراً — أو يوماً فيوماً أحياناً — دون أن يحاولوا ربط حادثة ما بشىء سابق ، أو يجعلوا من كتابتهم قصة متصلة ، أو يعرضوا لشىء من المقدمة والنتيجة لهذا أو ذاك مما كتبوه . على أنه من الحق أن يسجل لهم أنهم انتقدوا وفلسفوا وأنهوا بأحكام واضحة فى بعض الحوادث الجارية ، ولا سيما فى الأجزاء المعاصرة من

مؤلفاتهم ، وذلك على الرغم من أنّ أحكامهم هذه جاءت دائماً من باب التعقيب على الحوادث للعظة والاعتبار ، دون أن يكون فيها شيء من التعليل أو التحليل أو الاستقصاء .

وأما طريقتهم فى الأجزاء غير المعاصرة من مؤلفاتهم ، فهى أن ينقلوا من كتب السابقين نقلاً حرفياً ، مع ذكر اسم المرجع أو مؤلفه أحياناً قليلة فقط ؛ فمشوا بذلك على المبدأ القديم المتواتر بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، ولم يتعرّضوا لمنقولهم بمعقول أو نقد أو تجريح أو تعديل ، ما عدا أنهم غيّروا بعض الألفاظ بين العبارة والأخرى . على أن تلك الطريقة النقلية عادت بفائدة لا يمكن المبالغة فى مداها ، إذ حُفظت بفضلها كتب مفقودة أصولها الكاملة حتى الآن ، ولولاها ما وصل من تلك الكتب شيء للمتأخرين ، ولولاها كذلك ما عرفنا كثيراً مما هو معروف — وإن جاء ناقصاً — من أساليب المؤرخين فى مصر وغيرها من البلدان الإسلامية فى العصور الوسطى .

وأما ما يتعلق بالقيمة القياسية لكلّ من الأجزاء المعاصرة فى تلك المؤلفات جميعاً ، فتقرير ذلك مرتبط بما استقام للمؤلف من مقدرة على استقاء الأخبار من منابعها كرجال الدولة والدواوين ، وعلى تنقيتها وغربلتها من الشوائب والزوائد . وعلى هذه القاعدة يتبيّن أنّ المقريزى حرص فى الجزء المعاصر من كتاب السلوك على أن يكون رجلا نقادة جريئاً ، يعرف الغثّ من السمين

مما يتراءى إليه من أخبار وحقائق ؛ ولذا يجد القارئ بصفحاته معلومات قلّ أن يجدها فى مثل مساحتها من كتاب آخر ، وذلك فضلا عن انفرادها بحقائق ضافية فى أحوال النقود ، وقوانين المعاملات التجارية ، والاحتكارات السلطانية ، والأثمان الجارية لأنواع الأطعمة . غير أن الجزء الأخير من هذا الكتاب يوافق زمنياً عهد السلطان برسباى ، ولم يكن المقريزى من المقرّبين إلى ذلك السلطان ؛ ولذا يلمس القارئ فى ثنايا هذا الجزء من الكتاب شيئاً من المرارة والكراهية ، إلى جانب الجرأة فى النقد ؛ وذلك بعكس ما يقابله فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، إذ جاء أسلوبه أهدأ وأعدل ألفاظا ، لأن أبا المحاسن ظلّ من الحاشية حول بلاط برسباى وحاشيته .

غير أن المقارنة الدقيقة بين ما جاء فى كلّ من السلوك للمقريزى والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن من أخبار متفقة الوقوع تدلّ فى وضوح على أن أبا المحاسن نقل كثيراً من كتاب أستاذه نقلاً حرفيا ، دون أن يُعنى بالإشارة إلى مرجعه . ومن الجلىّ أنّ أبا المحاسن لم يجد ثمت سببا يدفعه إلى الاعتراف بذلك النقل ، مادام أنه عاصر الحوادث بعينها ، وربما شهدها بعينه كذلك ، وهذا تفسير من غير تبرير مقبول . لكن الذى يستحيل تبريره ألبتة أن أبا المحاسن كان كلما وجد نفسه مخالفاً لأستاذه ، نَقَل روايته بنصّها وفصّها مهما طالت ، وأتبعها بنقد وتصحيح من

عنده ، فى لهجة خالية من اللياقة أحياناً . على أنه إذا أغفلنا تلك الناحية من نقد أبى المحاسن لأستاذه ، فإن ما أورده بصدد كثير من الحوادث من تصويب وتصحيح جاء أقرب إلى الحقيقة والواقع مما كتب المقريزى ، إذ المعروف أن المقريزى هو السابق فى الكتابة ، وأنه اعتزل الحياة العامة منذ ترك الوظائف والدواوين ، وأن تلك الفترة الأخيرة من حياته هى التى اشتغل فيها بالتأليف ، على حين بقى أبو المحاسن طول عمره متقلباً فى بلاط السلاطين وبيوت الأمراء ، يتلقى من أقاربه وأصهاره وأصدقائه من موظفى الدولة ما ساعده على توضيح بعض الحقائق التاريخية التى غمضت على غيره . ومع هذا كله هيهات أن يقارَن ذلك التلميذ النابغ بأستاذه الكبير فى ضوء مؤلفاتهما ، من حيث القيمة والكثرة واختلاف المقاصد والتنسيق .

أما العينى ، فيكفى لبيان القيمة النسبية للجزء المعاصر من كتابه عقد الجمان فى أخبار الزمان ، وهو الجزء الذى يستغرق عصر السلطان برسباى وما يليه حتى سنة ١٤٥١ م ، أن العينى نفسه كان يجلس إلى حضرة ذلك السلطان ليقرأ عليه فى أمسياته بالتركية من كتابه الذى كتبه بالعربية . على أن تلك البيّنة تكون كافية للحكم على قيمته التاريخية ، لو كان من المعروف ما أتمه العينى من هذا الكتاب الكبير فى ذلك العهد ، أو أنّ العينى ذكر الأجزاء التى قرأها منه على السلطان قصْد تملّقه

أو ابتغاء وعظه بأخبار السابقين . وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن العينى تملّق جميع السلاطين الذين أفاءوا عليه من ظلالهم ، وأنه سبق له فى أوائل أيامه أن ألّف كتاباً مشهوراً فى فضائل السلطان المؤيد شيخ ، كما نظم قصائد كثيرة فى مدح كلٍّ من السلطانين ططر وبرسباى نفسه .

واستمدّ ابن حجر فى تأليف كتابه إنباء الغمر بأنباء العمر من كتاب العينى كثيراً ، وقارن الكتابين بعضهما ببعض مقارنة شملت التفاصيل ؛ على أنه لم يتعقّب عثراته بالعدالة والضبط ، كما فعل أبو المحاسن بمؤلفات المقريزى ، بل اعترف بالنقل منه اعترافا صريحاً فى قوله "كتبت منه ما ليس عندى ، مما أظن أنه اطلع عليه من الأمور التى كنا نغيب عنها ويحضرها[١] " ، أى أن الكتابين يكمل بعضهما بعضا فى كثير من المواضع . غير أنّه يلاحظ أن كتاب ابن حجر لا يجىء شيئاً بالنسبة لكتاب العينى فى الحجم ، بل إن قيمته تنحصر فى أنه سجلٌ وافٍ بالحوادث التى وقعت فى أيام ابن حجر فقط ، على حين أن كتاب العينى تاريخ شامل لأخبار مصر الإسلامية إلى عصر مؤلفه . ومع هذا فكتاب ابن حجر ممتاز بتعليقات وملاحظات تفرّد بها صاحبها عن سائر المؤلفين

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر بأنباء العمر — مخطوطة المتحف البريطانى بلندن ، ج — ١ ، صفحة ١ ب .

المعاصرين والسابقين ، ممن استق منهم بالإضافة إلى العينى ، كابن الفرات وابن دقاق والمقريزى .

أما ابن إياس ، فالقارئ لكتابه بدائع الزهور فى وقائع الدهور يفتقد الإفاضات والتفاصيل التى عرفها من مؤلفات المقريزى وأبى المحاسن والعينى وابن حجر ، فلا يجد لها أثراً . غير أن أسلوب ابن إياس — مع اختصاره وعزوفه عن الإطالة والإطناب حتى فى الأجزاء المعاصرة من كتابه — مطبوع بطابع الذكاء والدقة ؛ وليس فى استطاعة ناقد — مهما علا سمته — أن ينكر أنّ ابن إياس كان على جانب عظيم من القدرة ، وذلك رغم صرامة أحكامه ، ورغم أخطائه أحياناً فى ضبط الوفيات .

يتبقى بعد ذلك مسألة مكمّلة لهذا النقد المقارن ، وهى مدى إلمام المؤرخين الذين تقدّمت أسماؤهم بأحوال البلاد المجاورة لمصر ، من حيث جغرافيتها وأهميتها الاقتصادية لدولة المماليك . غير أنه ليس من العدل أن نقدر المعلومات الجغرافية عند أولئك العلماء بما ورد عرضاً فى كتبهم التاريخية بصدد البلاد المجاورة ، لأن مبلغ ما فى تلك الكتب لا يعدو ذكر اسم هذا أو ذاك من الأقطار والممالك ، بمناسبة وصول قاصد (سفير) من عند ملك من ملوكها إلى السلطان بالقاهرة . بل قليلا ما يجد القارئ غير ذلك ، مما لا يزيد عن أسماء الملوك ، أو مسافات الأسفار والطرق والمسالك التى عبرها القاصد الفلانى كيما يصل إلى مصر . غير أنه على الرغم من هذه

الندرة الجغرافية المنتظرة فى كتب التاريخ ، فالواقع أنه يمكن القول بأن أولئك المؤرخين عرفوا مواضع البلاد الإسلامية القريبة معرفة جيدة بفضل أسفارهم إليها ، وأن معلوماتهم بصدد الممالك الإسلامية البعيدة لم تكن قليلة بالقياس إلى معلومات العصور الوسطى فى أوصاف البلدان وجغرافيتها ، وأن ماعرفوه عن ممالك أوربا وأصقاعها مع ضآلته ونقصه لم يكن مهوّشاً مملوءاً بالخرافات ، بل تضمّن حقائق بارزة ثابتة فى تاريخها وجغرافيتها وعلاقاتها السياسية بجيرانها . ومن تلك الحقائق مثلاً أن دول أوربا المسيحية ، كالبندقية وجنوه وقطلونية وقبرص ورودس ، أضمرت كلها العداء لدولة المماليك ، على حين اكتفى بعضها بإرسال سفنه إلى موانئ السلطان للتجارة الحلال ، وعلى حين شجّع بعضها الآخر مختلفَ الإغارات الساحلية والقرصنة التى أوجبت الجهاد والاستئصال . غير أن المعلومات الجغرافيـة البحتة لم توجد طبعا فى كتب المؤرخين ، وحسب القارئ أن يولى وجهه شطر مؤلفات معاصريهم وأصدقائهم ممن كتبوا فى الجغرافية عرضاً أو قصداً ، ليعلم مبلغ إلمام علماء ذلك العصر بأحوال البلاد المحيطة بدولة المماليك . ومن هـذه المؤلفات كتاب صبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى ، وكتاب المقصد الرفيع المنشا الهادى لصناعة الإنشا للخالدى ، وكتاب زبدة كشف الممالك لخليل

ابن شاهين ، وكلها ممتلئ بأوصاف البلاد الإسلامية والمسيحية البعيدة والقريبة .

وثمت مسألة أخرى مكملة لهذه الخاتمة ، وهى سقم الأسلوب العربى الذى كتب به مؤرخو ذلك القرن مؤلفاتهم التاريخية وغيرها ؛ إذ الواقع أنها تموج بألفاظ وتعابير وجمل لا تمت للعربية الفصحى بصلة ، وتزخر بعاميات غريبة واصطلاحات غامضة لا تذكرها القواميس والمعاجم . وأكثر ما يكثر ذلك فى كتابات أبى المحاسن وابن إياس ، بل إن أسلوب المقريزى نفسه لم يخل من تلك الهنات . ويرجع ذلك أولا إلى ذيوع اللسان التركى بين طبقات الخاصة ، وإلى دخول كثير من ألفاظ اللغات المجاورة (بما فى ذلك اليونانى واللاتينى وفروعه) فى مصطلح الجيش والبحرية والدواوين ، مما أدى إلى كثير من الخلط بين ما هو عربى صحيح وما هو أجنبى غير جائز الاستعمال . وهذا الخلط فى ظاهره وواقعه عيب يؤسف له ، وكثيراً ما شكا قراء هذه الكتب التاريخية من عرج أسلوبها وغموضه ؛ غير أن ذلك فى باطنه حسنة لا تنكر ، إذ أنه نموذج لحال اللغة والكتابة فى عصر سلاطين المماليك بمصر والشام ، وهو لذلك مادة ذات أهمية للمعنيين بتاريخ الأدب العربى فى مصر ، والمشتغلين بدراسة لهجات القاهرة فى مختلف العصور .

مؤلفات المؤرخين الواردة فى هذا الكتاب[1]

١ — أحمد بن على المقريزى : (ص ٦)

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار — عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط — اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا — السلوك لمعرفة دول الملوك — المقفى الكبير — العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة — النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم — إغاثة الأمة بكشف الغمة .

٢ — أحمد بن حجر : (ص ١٧)

فتح البارى فى شرح البخارى — المجمع المؤسس والمعجم المفهرس — إنباء الغمر فى أنباء العمر — الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة .

٣ — العينى : (ص ٢٠)

عقد الجمان فى تاريخ أهل هذا الزمان — عمدة القارى فى شرح البخارى .

---

(١) تشمل هذه القائمة أسماء المؤلفات التى اقتضتها سير المؤرخين فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، غير أنها لا تشمل جميع المؤلفات المنسوبة إلى أولئك المؤرخين .

٤ — ابن عربشاه : (ص ٢٢)

التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر — عجائب المقدور فى أخبار تيمور .

٥ — خليل بن شاهين : (ص ٢٣)

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .

٦ — بهاء الدين الخالدى : (ص ٢٤)

المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا .

٧ — أبو المحاسن بن تغرى بردى : (ص ٢٦)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى — الدليل الشافى على المنهل الصافى — مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة والخلافة — حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور — نزهة الرأى فى التاريخ — البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر — نزهة الألباب فى اختلاف الأسماء والألقاب — حلية الصفات فى الأسماء والصناعات — البشارة فى تكملة الإشارة — الانتصار للسان التتار — الرياضيات والموسيقى — السكر الفاضح والعطر الفائح .

٨ — نور الدين بن الصيرفى : (ص ٣٦)

نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان — أنباء الهصر فى أبناء العصر — سيرة الأشرف قايتباى — الجوهرية فى السيرة النبوية .

٩ — أبو الخير السخاوى : (ص ٣٩)

التبر المسبوك فى ذيل السلوك — ذيل تاريخ دول الإسلام — الذيل المتناهى — الذيل على طبقات القراء — المنتقى من تاريخ مكة — تلخيص تاريخ اليمن — الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — الجواهر والدرر فى ترجمة ابن حجر — القول المنبى فى ترجمة ابن عربى .

١٠ — ابن إياس : (ص ٤٦)

بدائع الزهور فى وقائع الدهور — عقود الجمان فى وقايع الأزمان — نزهة الأمم فى العجائب والحكم — مرج الزهور فى وقائع الدهور — نشق الأزهار فى عجائب الأقطار .

١١ — عبد الرحمن السيوطى : (ص ٥٦)

شرح الاستعانة والبسملة — تكملة تفسير القرآن — طبقات الحفاظ — لب الالباب فى تحرير الأنساب — إرشاد

المهتدين فى نصرة المجتهدين — الرد على من أخلد إلى الأرض وجـهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض — التنبئة عن يبعثه الله على رأس كل مائة — الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف — تنوير الحلك فى إمكان رؤية النبي والملك — قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض — الإسفار عن قلم الأظفار — بلوغ المآرب فى قص الشارب — الوديك فى فضل الديك — مسألة ضربى زيدا قائما — حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة — تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين — تاريخ السلطان الأشرف قايتباى — بدائع الزهور فى وقائع الدهور — تاريخ أسيوط — كوكب الروضة — تاريخ العمر — المنتقى من تاريخ ابن عساكر — الشماريخ فى علم التاريخ — نظم العقيان فى أعيان الأعيان — بغية الوعاة فى طبقات النحاة — الملتقط من الدرر الكامنة — الأحاديث الحسان فى فضل الطيلسان — مارواه الأساطين فى عدم المجىء إلى السلاطين — تأخير الظلامة إلى يوم القيامة .

١٢ — عبد الباسط بن خليل : (ص ٦٨)

نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين — نيل الأمل — الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم — تاريخ الأنبياء الأكابر — الوصلة فى مسألة القبلة — الحكمة والسر فى الضوء — القول المأنوس — شرح القانونشة فى الطب — عمدة الطالبين ورغبة الراغبين فى الفقه .

١٣ — حسن الطولونى : (ص ٧١)

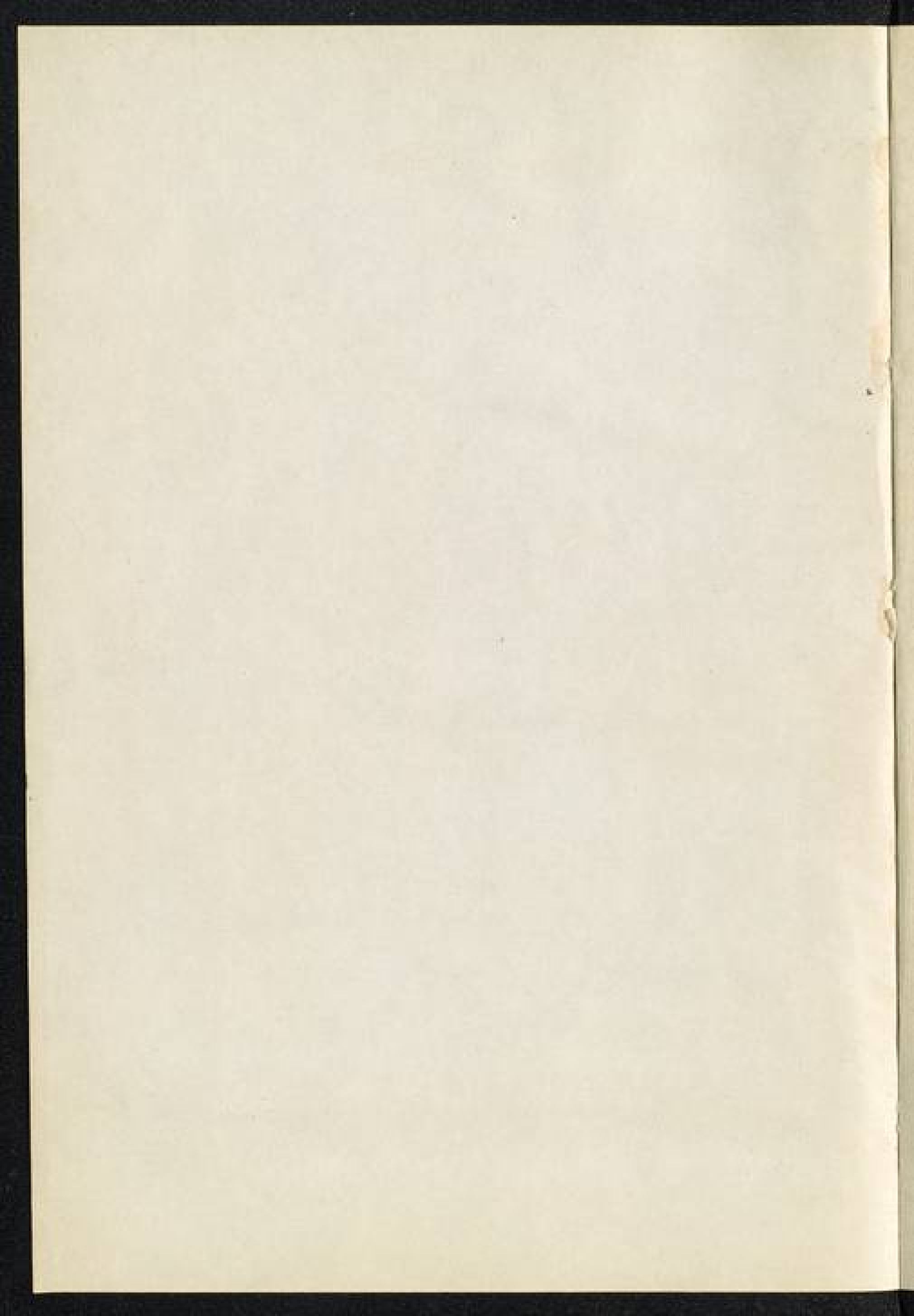
النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية — شرح مقدمة ابن الليث — الأجرومية .

١٤ — ابن زنبل الرمال : (ص ٧٥)

تاريخ أخذ مصر من الجراكسة — الدرة اليتيمة فى تاريخ مصر القديمة — تحفة الملوك والرغائب — المقالات فى حل المشكلات .

١٥ — محمد بن طولون الدمشقى : (ص ٧٦)

الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون — عجائب الدهر — العقود اللؤلؤية فى الدولة الطولونية — حور العيون فى تاريخ ابن طولون — الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام — أعلام الورى — سلك الجمان — المنطق المنبى فى ترجمة ابن العربى — الاختيارات المرضية فى أخبار التقى ابن تيمية — التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والخلان .





DATE DUE

FEB 15 2012			
GAYLORD			PRINTED IN U.S.A.

